

أسئلة وجودية

الإيمان والإلحاد على طاولة البحث

علي خضر غاشمي



أسئلة وجودية

الإيمان والإيجاد على طاولة البحث

أسئلة وجودية

- الإيمان والإلحاد على طاولة البحث -

علي خضر غاشي

Existential Questions

By Ali Khoder Ghashi

الطبعة الأولى: مارس - آذار، 2025 (1000 نسخة)

Copyright@Dar Al-Rafidain2025

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرايك نسخة أصلية من هذا الكتاب ولا احترامك لحقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.



بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

دار الرافدين Dar ALRafidain

daralrafidain

dar.alrafidain

dar_alrafidain

دار الرافدين daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 749 - 05 - 1

أسئلة وجودية

الإيمان والإحاد على طاولة البحث

علي خضر غاشي



www.daralrafidain.com

إهداء..9

تقديم 11

نسخة التقديم باللغة الانجليزية15

أسئلة وجودية19

الإيمان والإلحاد على طاولة البحث19

أهم الدراسات السابقة22

مشكلات حاولت هذه الدراسة تجاوزها23

ما الأسئلة الوجودية..؟!27

محورية مسألة الإله!33

ضمانة المصير الإنساني..34

آفاق وأصعدة الحياة الإنسانية42

إشكالية اللا اكرائية43

الحدث الأبرز.. ولادة العالم45

فكرة مثيرة للاشمئزاز!48

أكوان بديلة عن الله!51

خارج خريطة العلم53

تعقيد النظام55

إله هو كينج57

من خلق الله؟!60

اختزال النقطة المتفردة لمفهوم الوجود66

التصميم الذكي vs الانتروبي71

المادة والمادة المضادة73

علاقات رياضية داخل القوى الرباعية!77

مشروع الجينوم البشري81

الاعتراض على فكرة التصميم86

مع هيوم في إشكالاته97

ما قبل داروين وما بعده!101

مؤشرات نظرية التطور103

التشابه الظاهري104

تشابه أكثر عمقاً107

التحديات التي تلوح لنظرية التطور115

السجل الأحفوري116

التعقيد غير القابل للاختزال119

- التابوهات في المجتمع العلمي 126
محاكم تفتيش إحادية! 127
حصار إعلامي! 129
دلالات التطور 131
المنطلق الأول: محدودية تاريخ التطور 132
المنطلق الثاني: محدودية نطاق التطور 135
المنطلق الثالث: عقيدة داروين 138
رحلة الحيرة الأخلاقية مع السفينة البريطانية «مونيوت» 143
السجال في البرهان الأخلاقي على وجود الله 149
مراوغات دوكنز 151
استطراد متصل بالموضوع 153
ولنا مع هذه الإثارة وقفة من وجوه 154
تجربة ارتداء خوذة الله! 161
تجارب الاقتراب من الموت! 164
تجربة ارتداء خوذة الله 168
نقد بيرسنجر 171
إعادة إنعاش الفطري من الدين! 175
خلاصة 181
المصادر 185

إهداء..

إلى المخلص في سؤاله الوجودي..

الذي «ما أظلت الخضراء

ولا أقلت الغبراء»

أصدق لهجةً منه

إلى المنغمس بعرفانه ووجدانه وعقله في البحث عن الحقيقة!

حتى لامس ضياءها.. فأصبحت الحقيقة له (نورًا يمشي به في التأس) إلى أبي ذر الغفاري..

أهدي هذا الكتاب، أملًا من القدر أن يمنحني بعضًا من صدقه وثباته واندماجه في الحقيقة ونورها.

تقديم

بقلم: البروفيسور الأمريكي «لغنهاوزن» (1)

في فلسفة الدين، يتم تحليل المعتقدات الدينية وتحديها أو الدفاع عنها. وتثار الدعوة إلى التبرير في قبال التحدي الموجه ضد المعتقد الديني بأنه غير عقلائي أو يفترق إلى التبرير المعرفي.

وتأتي الاستجابات لتحدي التبرير من قبل أولئك الذين يرغبون في الدفاع عن المعتقد الديني على طرق متنوّعة:

(1) لا يتطلب المعتقد الديني أي نوع من التبرير العقلاني.

(2) المعتقد الديني مبرر عقلائيًا.

ويمكن تقسيم أولئك الذين يقبلون (2) إلى:

(A.2) أولئك الذين يعتبرون المعتقد الديني عقلائيًا دون الحاجة إلى أي حجة.

(B.2) أولئك الذين يجدون أن المعتقد الديني يحتاج إلى تبرير بالحجة.

كما يمكن تقسيم أولئك الذين يقدمون الحجج لتبرير المعتقد الديني إلى:

(2.ب.1) أولئك الذين يستشهدون بالعقل العملي.

و(2.ب.2) أولئك الذين يستشهدون بالعقل النظري.

يشمل أولئك الذين يستشهدون بالعقل النظري أولئك الذين يعتمدون على الاستدلال الاستنتاجي والاستقرائي والجدلي أو الإستنباطي.

إن المعتقد الديني الذي نال أكبر قدر من الاهتمام في فلسفة الدين هو الاعتقاد بوجود الله. تقليديًا، كانت الدفاعات عن الاعتقاد بوجود الله تتم من خلال محاولات صياغة أدلة أو براهين على الوجود الإلهي.

على مدى قرون عديدة، كانت التحديات الرئيسية التي واجهت المعتقدات الدينية التوحيدية تأتي من الداخل. وعلى الرغم من تحدي المعتقدات الخاصة حول الله ومناقشتها، إلا أن اليهود والمسيحيين والمسلمين نادرا ما عبروا عن أي شكوك حول وجود الله. لم يتم تقديم الأدلة التقليدية لوجود الله لإقناع أولئك الذين لا يؤمنون به. بل كانت الأدلة تعليمية. أئ أنها جاءت لتوضيح كيف يمكن إعطاء العقيدة اللاهوتية بنية منطقية قائمة على ما اعتُبر مقدمات بديهية أو مقدمات واضحة للحواس.

في تقديم الأدلة على وجود الله، تم إعطاء مفهوم الألوهية تركيزًا أكبر، شهدت تفسيرات الألوهية غالبًا درجة ما من التوتر، بسبب ارتباطها بأسلوب القراءة الحرفية للكتاب المقدس والإشكالات العقلية التي تلزم من ذلك.

إن التحديات التي يواجهها المعتقد الديني والتي يواجهها المرء في المناقشات العلمانية ليست مجرد ادعاءات بأن دليلاً معيّنًا غير سليم. إن المؤمن الديني يواجه طلباً للأدلة التي يمكن أن تدعم معتقداته الدينية. فإذا ما قُدمت الأدلة في هيئة دليل عقلائي أو نداء إلى التجربة الدينية، فإن التحدي يصبح موجهًا ضد مصداقية هذه الأدلة المقدمة وصحتها.

كما يتخذ الملحدون موقفاً هجومياً، فلا يكتفون بالزعم بأنه لا يوجد سبب وجيه للاعتقاد بوجود الله، بل يهاجمون الإيمان بالله باعتباره غير علمي أو غير عقلائي. وفي بعض الأحيان تُقدّم أدلة إحدانية، وكثيراً ما تكون هذه الأدلة مرتبطة بمشكلة الشر. كما كانت هناك هجمات على الدين استناداً إلى ادعاء مفاده أن المقترحات الدينية ليست زائفة بقدر ما هي بلا معنى.

ويمكننا أن نرى هذا المشهد باعتباره مسيرة ثابتة من الاتهامات القاسية على نحو متزايد. أولاً، التحدي هو أن المعتقد الديني لا يمكن إثباته بشكل قاطع. ثانياً، التحدي هو أن المعتقدات الدينية غير مبررة، وعلاوة على ذلك، لا يمكن تبريرها. ويزعم البعض أن المعتقدات الدينية غير عقلانية تماماً، أو بلا معنى، أو ضارة.

إن الكثير من فلسفة الدين في القرن العشرين هي نتاج لهذه الأنواع من المناقشات، والتي ركزت إلى حد كبير على قضية وجود الله. ووجهة نظري هي أن هناك دليلاً تقليدياً وسليماً لوجود الله تم تفصيله وإعادة صياغته بطرق مختلفة عديدة من قبل المسلمين، ويطلق عليه أحياناً اسم «برهان الصديقين»: الله هو الحقيقة/الواقع، الحق. الحقيقة/الواقع موجود. إذن، الله موجود.

وقد طور مؤلف هذا الكتاب أمام القارئ صياغة مختلفة عن تلك التي تُعطى عادةً في مثل هذه الأبحاث. إنّ أي شخص يريد أن يفهم كيف تم تصور الألوهية من قبل الفلاسفة واللاهوتيين العظماء سوف يستفيد من دراسة محاولات إثبات وجود الله وكذلك محاولات دحض وجوده التي يستعرضها هذا الكتاب.

يقدم هذا الكتاب للقارئ العزيز محاولات الشيخ علي خضر غاشي لاستخدام رؤاه الأصلية حول الأدلة المؤيدة والمعارضة لوجود الله مع الانتباه إلى العديد من الكتابات المعاصرة للمؤمنين والكافرين.

لقد تم تأليف هذا الكتاب مع وضع الشباب الناطقين باللغة العربية في عين الاعتبار، وأنا أدعو الله أن يستفيدوا من هذا العمل للانخراط في تفكير جدي وأصيل حول هذه القضية.

لغنهاوزن

5 – يناير – 2025

In the philosophy of religion, religious beliefs are explicated, challenged, and defended. The call for justification is raised by the challenge leveled against religious belief that it is irrational or lacks epistemic justification. Responses to the challenge by those who wish to defend religious belief are: (1) religious belief does not require any kind of rational justification (e.g., fideism); (2) religious belief is rationally justified. Those who accept (2) may be divided into: (2.a) those who consider religious belief to be rational without need of any argument; (2.b) those who find that religious belief needs to be justified by argument. Those who offer arguments in order to justify religious belief may be divided into: (2.b.i) those who appeal to practical reason, and (2.b.ii) those who appeal to theoretical reason. Those who appeal to theoretical reason include those who rely on, deductive, inductive, and on dialectical or abductive reasoning. The religious belief that has received the most attention in the philosophy of religion is the belief in the existence of God. Traditionally, defenses of belief in the existence of God have been made through attempts to formulate proofs or demonstrations of divine existence.

For many centuries, the major challenges to monotheistic religious beliefs came from within. Although particular beliefs about God were challenged and debated, Jews, Christians and Muslims rarely expressed any misgivings about the existence of God. The traditional proofs for the existence of God were not offered to convince those who did not believe in him. The proofs were instructional. They showed how theological doctrine could be given a logical structure founded on what were considered to be self-evident premises or premises evident to the senses. In offering proofs for the existence of God, the concept of divinity also was given a sharper focus and a philosophical interpretation that was often in some degree of tension with a literal reading of scripture.

The challenges to religious belief that one encounters in secular discussions are not merely claims that a given proof is unsound. The religious believer is confronted with a demand for evidence that can support religious belief. If evidence in the form of a rational proof or appeal to religious experience is given, the challenge is pressed against the credibility of the evidence brought. Challengers also take the offensive, not just claiming that there is no good reason to believe in the existence of God, but attacking belief in God as unscientific or irrational. Sometimes atheistic proofs are offered, often with reference to the problem of evil. There have also been attacks on religion based on a positivistic claim that religious propositions are not so much false as meaningless.

We can see this as a steady march of increasingly harsh accusations. First, the challenge is only that religious belief cannot be conclusively demonstrated. Next, the challenge is that religious beliefs are not justified, and, furthermore, that they cannot be justified. Some claim that religious beliefs are altogether irrational, meaningless, or pernicious.

Much of twentieth century philosophy of religion is the outgrowth of these sorts of discussions, which have been largely focused on the issue of the existence of God. My own view is that there is a very traditional and sound proof for the existence of God that has been elaborated and reformulated in many different ways by Muslims, and is sometimes called the *Burhān al - Şiddiqīn*: God is the truth/reality, *al - Ḥaqq*. Truth/reality exists. So, God exists. A different formulation than is usually given is developed by the author of the book before the reader.

Anyone who wants to understand how divinity has been conceptualized by the great philosophers and theologians will benefit from the study of the attempts to prove God's existence as well as the attempts to disprove His existence.

The book before the dear reader by Shaykh Ali Khder Ghashi presents the author's own attempts to use his own original insights about the proofs for and against the existence of God with attention to numerous contemporary writings by believers and disbelievers. The book was written with Arabic speaking young people in mind, and it is my prayer that they may benefit from this work to engage in serious and original thinking about this issue.

Legenhausen

January 2025 .4

كان عام 2020 م أول دخولي للجامعة. من سوء الحظ أنّ الحياة كانت مضطربة بطروف وباء كوفيد – 19 (الكورونا)، بدأت الدراسة على طريقة التعليم عن بعد.. كنت حينها أقضي بعض الليل في خيمة أحد أصدقائي – وهو طالب في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن – وقد سرحت تلك الخيمة بتفكيرنا لبعض المرات في أسئلة الإنسان المصيريّة عن الخالق. كنت أكتب آنذاك بعض الأفكار كرؤوس أقلام، وبقيت تدويناتي تلك دون أي عناية تُذكر.

في عام 2023 م زرت أحد المثقفين التنويريين [أو الذين يُطلق عليهم هذا الوصف]، وقد طرح عليّ إشكالاً مفاده أنّ الإيمان لم يتكوّن حرفياً من قناعات عقلية بقدر ما نشأ عن تشابك عاطفي، أي أننا نحب أن نكون مؤمنين أكثر من كوننا قد اقتنعنا بصحة الأفكار الدينية، أعادني ذلك إلى ذكرياتي القديمة في خيمة صديقي، وأوقد في ضميري جذوة فتح ملف الأسئلة الكبيرة من جديد.

حاولت في هذه التدوينات أن أضع الأطارح المعاصرة، على القارئ أن يهيئ نفسه لاستقبال حشد من النظريات أو الأسس الفيزيائية أو البيولوجية التي يناقش بها بعض علماء الطبيعة صحة المعتقد الديني القائم على وجود الإله، وربما يقول أحدهم أنني تجاوزت في هذا الكتاب حدود تخصصي كطالب علم أو باحث في الدين، لكنني لا أظنّ أن أحداً قال ذلك لهوكينج الذي تكلم في الإله وناقش الإيمان عبر الفيزياء! قد يُرد على هذه المقولة بأنّ الدين شأنٌ عام وليس تخصصاً معرفياً، وهذه مكابرة واضحة لمن يريدون الكلام فيما لم يحيطوا به حُبّاً، فإنّ أدنى مطالعة للمسائل التي بذل فيها علماء الأديان قاطبة جهودهم، وأنتجوا فيها مقادير ضخمة من الأعمال والكتب، مع ما فيها من التنوع والعمق والافتراض، كافية لحكم الضمير الصادق بأنه أمام حقل علمي مستقل وقائم بذاته.

ولأجل عدم اختصاصي بالفيزياء أو البيولوجيا سيجدني القارئ لا أنقل أيّ معلومةٍ دون الإشارة إلى مصدر علميٍّ معتمد، مع إرفاق تعريف مختصر بقائلها أو منظرها، كما أنني لم أتعامل قط في مناقشاتي معاملة الناقد علمياً، وحصرت كلماتي في مناقشة المديات الفكرية والفلسفية المترتبة على تلك المسافات العلمية وبذلك أكون حفظت حروفي في حدود مجال اشتغالي.

يبقى السؤال عن الموضوعية. وهو سؤال عسير بعض الشيء، سؤالٌ يتعلق بما إذا كان الباحث قد تعامل مع احتمالات الدراسة الممكنة [الإيمان/الإلحاد] كاحتمالات متكافئة ابتداءً، أي أنه لم يجر البحث على أساس انحيازات سابقة، ما يهوّن الخطب أنّ هذا السؤال لا يتعلق ببحثنا هذا فقط بل بكامل الإرث الفكري للإنسان، وبكفيتني في هذا الصدد أن أعد القارئ لهذه الأوراق بأنني سأحاول التخلص من نزعاتي الذاتية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كما أذكره بأنه ليس لنا من سبيل ممكن في هذه الحياة سوى اتباع ما تنتجه عقولنا وتوفده أفكارنا في النهاية.

لا شك أيضاً أن سؤال الموضوعية يزداد عسراً إذا تعلق بموضوعات لها طلال ديني، لأن أفكاراً أخرى قد تدخل على الخط من قبيل «الحرام» و«التقديس»، الواقع أن أكثر الناس يرثون الدين كما يرثون اللغة والوطن والجينات، قليل من الناس هم الذين يجرون حواراً مع دينهم، أي أنهم يتجرؤون في طرق أي مساءلة ترد إلى أذهانهم حوله، [حول قدرته على التطور أو موقفه من الحرية مثلاً]، لكن هؤلاء القليل هم المحققون في نظري، وقد حاولت في هذا الكتاب أن أحوض هذه التجربة الخطيرة ملخصاً شطراً من مسألاتها التي أتداولها مع نفسي. لقد حاولت أن أجري حواراً مع الدين!

من مساوئ مسألات الانسان تجاه دينه هو أنها ستوقعه في مصيدة الأرق وتسلب طعم النوم من عينيه، وكم سلبت هذه الأبحاث مني النوم أياماً وليالٍ طويلة.. رغم ذلك كان لأرقها عندي لذة منقطعة النظير. فما أسوأ أن تخلد للنوم فتُغمض عينيك من دون أن يراودك – لبعض الوقت – سؤال وجودي.

تولّد هذا الكتاب نتيجةً للبحث، فأنا دوّنت هنا الأدلة التي توصلت من خلالها لصحة الإيمان، في أثناء حوض هذا البحث – الذي استغرق قرابة سنة كاملة – وتدوينه فيما بعد، أبدى لي بعض الأصدقاء عدم ارتياحهم من الدخول في هذا البحث أو تفصيلهم لعدم نشره على الأقل؛ لاحتواءه على ما يمكن أن يشوّش ذهن الإنسان من ذكر بعض المصادر أو الأسماء أو الأفكار الإلحادية، مع تقديري لأولئك الأصدقاء لكنني أحالفهم في الرأي، فنحن لا ننشر هذه الأفكار بل نواجه انتشارها، فلم تعد هناك فكرة خفية في هذا العالم السائل، ولا يمكننا الإنزواء عن التحديات الفكرية الجديدة بإبقائها تحت الرماد، ليس ذلك في الحقيقة سوى الإنهزام المحض، إنما تُفرز المقولات الصحيحة من الخاطئة عبر قوة المنطق والدليل.

أهم الدراسات السابقة: العلم ووجود الله – هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟! : جون لينوكس. ترجمة: مارينا كتكوت، خدمة credologos، م 2007

- وهم الإله: ريتشارد دوكنز. ترجمة: بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية
- كون من لاشيء: لورانس كراوس. ترجمة: غادة الحلواني، منشورات الرمل، مصر، 2015
- التصميم العظيم: ستيفن هوكينج. التصميم العظيم. ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، 2015

- الله والدماع.. عقلانية الاعتقاد: جيمي كلارك. ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2022
- أفي الله شك؟! د.مرتضى فرج. دار الانتشار العربي، بيروت، 2013
- براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم: د.سامي عامري. مركز تكوين، الخبر، 2018
- هناك إله: انتوني فلو. ترجمة: د. صلاح الفضلي، العتبة العباسية المقدسة، كربلاء، 2017
- لغة الإله: فرانسيس كولينز. ترجمة: د. صلاح الفضلي، المكتبة الكويتية الوطنية، الكويت، 2016
- الدين بين معطيات العلم وإثارات الإلحاد: آية الله الفقيه السيد منير الخباز، شبكة المنير، القطيف، 2018

مشكلات حاولت هذه الدراسة تجاوزها: قد يتساءل القارئ الكريم عن الجديد الذي تضيفه هذه الدراسة، وهو سؤال مشروع خصوصاً مع النظر إلى كثرة الأبحاث المكتوبة في الموضوعات العقديّة، ولأجل ذلك نقدّم بين يديه بعض العناصر التي لربما يفقدها الباحث عند مراجعته لكثير من الأبحاث بينما حرصت هذه الدراسة على احتوائها: •العنصر الأول: حاولت هذه الدراسة قدر استطاعتها الخروج بالقارئ عن عناء مكابدة اللغة الفلسفيّة وإرهاق فهمها، إذ أنّ المراجع للكتب العقديّة يجد أنها – في الأعمّ الغالب – إمّا مملوءة بحشد من المصطلحات المعقّدة على نحو لا يتفاعل معها غير المتخصص، أو مبتلية بالتسطيح على نحو لا يجد المهتمّ المتأمل فيها بعينته وأنسه، وقد لاحظت هذه الدراسة عمق أثر هذه المشكلة، إذ أنّ الموضوعات العقديّة المتعلقة بالأسئلة الوجوديّة ليست موضوعات تخصصية تهم جماعة محددة من المشتغلين بحقل معرفيّ خاص حتّى يختصر العطاء فيها على الأنماط التخصصية، ومن جهة أخرى وجدت هذه الدراسة أنّ سهولة إيصال المعلومة في إطار البحث بين الإيمان والإلحاد تعيش حالة من عدم التكافؤ، فالمسوّقون للتشكيك في وجود الله يحرصون غاية الحرص على استعراض أفكارهم بشكل مبسط، ولذلك نجد أنّ بعض الكتب التي أنتجت لأجل هذه الغاية حصلت لها أصداء واسعة حتّى أصبحت من الكتب الأكثر مبيعا وانتشارا في العالم، ككتاب «التصميم العظيم لستيفن هوكينج»، وليس الأمر كذلك بالنسبة للكتب التي اشتغلت على إثبات القناعات الإيمانيّة خصوصا العميقة منها، فنحن نجد أنّ تعقيد مصطلحاتها وإغلاق عباراتها من أهمّ العوامل التي تحد من تأثيرها، وقد حاولت هذه الدراسة بعناء شديد أن تجمع بين تحرير العبارة عن تعقيدها الشكلي وعدم التنازل عن عمقها ودقتها لأجل تجاوز هذه المشكلة.

•العنصر الثاني: حاولت هذه الدراسة قدر استطاعتها أن تحافظ على منهج واضح في الاعتماد والتوثيق العلمي لما تنقله عن الغير في الأقوال والتجارب والمواقف.. إذ أنّ الملاحظ أنّ بعض الدراسات لا تولي لذلك اهتماما كبيراً، فيمكن أن يلاحظ القارئ في طياتها نسبة ما لمجتمع بأكمله من دون أن تكون تلك النسبة موثّقة بمصدر يُعتمد عليه، فيُقال: (أثبتت الدراسات العلمية، أو أثبت العلم الحديث، أو غير ذلك من التعبيرات)، وفي بعض الأحيان يتمّ توثيق المصدر، ولكنّ القارئ يبقى على جهل تام بهذا المصدر من حيث موثوقيّته وقيّمته العلميّة، خصوصاً مع كون المسألة المبحوثة متعددة الأبعاد كموضوع بحثنا، فإذا تمّ النقل عن عالم بيولوجي أو فيزيائي، لا يعرف القارئ ما يمثله هذا العالم من الرتبة في مجال

اختصاصه، ولذلك لا يتمكن – بالمعنى الدقيق للكلمة – من التحقيق في المقدمات التي بنى عليها الباحث استنتاجاته الأخيرة، إلا عبر الثقة بنفس الباحث والاعتماد على كفاءته، – وهذه الثقة قد يُنازَع في صحتها من الناحية الموضوعية لأنها تسليمٌ للكاتب من دون برهان –، فلأجل ذلك التزمنا أولاً في هذه الدراسة أن لا ننقل أيّ فكرة إلا بتوثيق مصدرها العلمي على نحو يتيح للقارئ أن يراجع المصادر ويتحقق من دقة النقل، والتزمنا ثانياً بأن نقوم بالتعريف بالعلماء وأصحاب النظريات والأفكار الذين ننقل عنهم في أوّل مورد نقوم فيه بالاقْتِباس منهم، لأجل أن يكون القارئ على دراية واطلاع بموثوقية آرائهم واعتبارها في مجال البحث، إذ أنّ مجرد دقة النقل لا تكفي، فلربما يكون النقل صحيحاً لكن المنقول عنه لا يشكل كلامه أي درجة من الاعتبار في الموضوع.

•العنصر الثالث: حاولت هذه الدراسة قدر استطاعتها أن تستوعب المشهد الفكري في كلّ موضوع تبحثه على نحو يكون الاستنتاج الذي تصل إليه مبنيّ على رؤية كاملة غير ناقصة لما قدّم في هذا الموضوع، إذ أنّ بعض الدراسات تتناول جانباً محدداً من البحث فقط: كالأدلة على وجود الإله مثلاً، أو الأدلة على عدم وجوده، وكأن الأدلة هنا وهناك لم تُناقش أو تعارض بمعارضات نقدية، فتكون النتيجة عندئذ مبنيّة على مقدمات غير كاملة، فلربما لو اطّلع القارئ الذي اقتنع – لأوّل وهلة – بفكرة ما على ما قدّم في نقدها واعتراضها لتزلزلت عنده تلك القناعة، ولأجل ذلك حرصنا على تقديم الأدلة في كلّ طرف مع ما وجّه لها من النقد، بل مع ما وجّه للنقد من نقدٍ متى ما كانت هناك إجابات معتبرة لدفع النقودات والإشكالات، وهذا ما سيلاحظه القارئ في مختلف مفردات وموضوعات الدراسة.

•العنصر الرابع: حاولت هذه الدراسة قدر استطاعتها أن تعتمد على أحدث المعطيات العلمية التي تثار وتردد في موضوع ثنائية الإيمان والإلحاد، ولذلك قد يجد القارئ أنها تعمّدت عدم ذكر بعض الأمثلة أو المناقشات التي لم يعد لها ذلك الاعتبار العلمي – في نظريات العلوم الطبيعية مثلاً –، وليس ذلك إلا لأنّ تلك المعطيات إما قد استُنفذ البحث فيها، أو أن معطيات جديدة حلّت محلّها، على نحو يكون المدار الموضوعي في

المسألة على مناقشة هذه المعطيات الجديدة دون تلك العتيقة التي قتلها الباحثون بحثاً بما لا مزيد عليه.

ختامًا، لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الخالص للأستاذ البروفيسور «لغنهاوزن» على تكّرمه بالاطلاع على نسخة البحث وإبداء مجموعة من الملاحظات القيّمة التي أسهمت في تطويره لحلته الأخيرة، كما أشكر مجموعة العلماء والباحثين الكرام الذين شجّعوني على خوض هذا الغمار، إيماناً منهم بضرورة التفاعل مع الجديد من أطروحات العصر بدلاً من استغراق الجهود العلميّة واستنزافها في عوالم وجدليّات أكل عليها الدهر وشرب، إنني أتمنى أن يستفيد قارئ هذا الكتاب من بعض أطرافه، ولعله يكون أكثر صوابًا ودقّةً مني في جوانب عديدة، فأتمنى أن يعذرني لذلك، فنحن نكتب لننموا في الحقيقة، ونحن نكتب لأن في ذواتنا شيء مخبوء يتشكل بالكتابة.

ما الأسئلة الوجودية..؟!

ربّما يتذكّر البعض برنامج الأيميشن الأمريكي (حياة الدمى السريّة) الذي بثته منصة «Spacetoon» الشهيرة قبل عدة سنوات، حيث يندئ المشهد بانشودةٍ للدمى:

سؤالٍ يراودني.. لماذا تضيء النجوم في السماء؟!

ولماذا تكثر الغيوم في الشتاء

.. لماذا نحن هنا؟!

سؤالٍ صعبٌ.. سؤالٍ يراودني⁽²⁾

قد لا تكون هذه البرامج تستهوي جميعنا حيث كُنّا أطفالاً، من الطريف أن يستذكر الإنسان ما كان يتابعه طفلاً من المسلسلات الكارتونية، وكيف كان يتقمص أدوار أبطالها بسذاجةٍ نوعاً ما، عادةً ما ينسى بنو البشر كثيراً من لحظاتهم الفرحة والسعيدة، – ولعلّ العلم يقدّم يوماً للبشرية، خدمةً كبرى، إذا طوّر آليّة تحافظ على قوّة الذاكرة –، أمّا تلك اللحظات المختصة بالطفولة فلها شأنٌ شعوري خاص، يجعل لها حضوراً يرواح النفس كلّ فترةٍ وأخرى.

وفي الواقع أنّ قليلاً من التأمل في أسئلة «الدمى السريّة» يجعلنا نعتقد أنها استثنائية، أي ليست كغيرها من لحظات اللهو الطفولية العابرة، إذ ليس صدفةً أنها تأتي شبيهة بتلك الأسئلة التي أثارها عالم الفيزياء الكويّبة «ستيفن هوكينج»⁽³⁾ واصفاً بها رحلتنا الإنسانية في الحياة: (يوجد كلُّ مئاً لفترةٍ وجيزة، نستكشف خلالها جزءاً ضئيلاً من الكون وحسب. لكننا كبشر نوع فضولي، نحن نتساءل ونفتش عن الأجوبة. التأس إذ تحيا في هذا الكون الهائل الذي يتبدّل حاله بين كون رحيم وكون قاسٍ ويحدّقون لأعلى للسماوات الشاسعة، فإنهم دائماً يسألون العديد من الأسئلة: كيف يمكننا فهم العالم الذي وجدنا أنفسنا فيه؟، كيف يسلك الكون؟، ما طبيعة الواقع؟، من أين أتى كلُّ ذلك؟ هل الكون بحاجةٍ لخالق؟! هذا هو السؤال النهائي للحياة وللكون ولكلِّ شيء).⁽⁴⁾

وهو ما يذكّرنا بالإثارة المعقدة التي عدّها الفيلسوف «ايمانويل كانت»⁽⁵⁾ أهمّ إثارات التاريخ، حيث كتب «ألّفن بلانتجا»⁽⁶⁾: (يرى كاتب أنّ أهم ثلاث أسئلةٍ خطرت على العقل البشري هي:

1 – هل يوجد إله؟!، 2 – هل البشر أحرارٌ في أفعالهم؟!، 3 – هل سيعيش البشر حياةً أخرى بعد موتهم؟!)⁽⁷⁾

وقد عبّر العالم الفيزيائي النمساوي «إدوين شرودنجر»⁽⁸⁾ عن شدّة تحيّر إزاء هذه الإثارة، حيث يقول: (إنه سؤالٌ لا يُدرَك، وهو السؤال ذاته الذي يشغل كل واحد منا، ولا يملك العلم جواباً عنه: من أين أتينا، وأين نذهب؟!)⁽⁹⁾

وحسبى أكنز الفلاسفة تهوِّراً وتشاؤماً وتهرّباً من الوجود، أعني «فريدريك نيتشه»⁽¹⁰⁾، لم يستطع حين وصوله لهذا السلك من الأسئلة أن يُغفل أهميتها وخطورتها، وذلك لأنها تختزن في أعماقها كلّ معاني الحياة الممكنة! عبّر الفيلسوف الألمانيّ، عن الإنسان الأعلى، أو السوبرمان كما يسميه: (إنه ذاك الذي ينغمس في الوجود، وعلى شفثيه أسئلة: لماذا نعيش؟، وحرمةً أخرى من أسئلة معنى الحياة)⁽¹¹⁾

بل أكثر من ذلك، وقد يثير هذا نوعاً من الاستغراب، حتّى الذين حملوا راية الإلحاد بالإله في عالمنا، أعلنوا بصراحةٍ تامّة أنّ مثل هذه الأسئلة في غاية الإلحاح والطلابيّة، افتتح «ريتشارد دوكنز»⁽¹²⁾ كتابه عن الجينة الأنائيّة، بقوله: (لماذا وجد البشر؟!، تبلغ الكائنات العاقلة في أي كوكب، سنّ الرشد عندما تنجح في اكتشاف علة وجودها)⁽¹³⁾

يتبيّن إذًا أنّها ليست أسئلة الدمى، أو الأطفال فقط. أو الفلاسفة، أو العلماء، أو المؤمنين، أو الملاحدة، بل إنها أسئلة الإنسان، أسئلة وجوديّة، نقضي مسيرتنا في الحياة ونحن نفتش عنها، ونمضي وقتنا ونحن نسرّح فيها، لأنّه لن يحسن أيّ أحدٍ بقميّةٍ لأيّ شيء، إلا من خلال رؤيته لهذه الأسئلة.

وأكثر هذه الأسئلة توقّداً في ضميرنا وإلحاحاً في طلب الإجابة، هي سؤالنا عن الخالق المبدع الذي فتق كلّ هذا الوجود البديع والشاسع من رحم العدم الأصم!، ففي دراسة استقصائية أجرتها مؤسسة بحثيّة بريطانيّة في منتصف القرن العشرين، على مجموعة من العلماء الأكاديميين في مختلف الحقول والمشارب العلميّة، عملت من خلالها على وضع معايير علميّةٍ منطقيّةٍ لنشر قائمة أو معجم بأسماء الكتب الممثلة لأعظم نتاجات العلم في الغرب، وكانت النتيجة موسوعةً ضخمة تضمّ 54 مجلداً تحت عنوان: (Great book of the western world)، ضمّت الموسوعة مختلف النتاجات الغربيّة الكبرى من علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والقانون واللاهوت وغيرها، وكان اللافت في الأمر أنّ النصيب الأوفر كان من حظّ الكتابات المتناولة لموضوع «الإله»، وعندما سُئل أحد أعضاء الفريق العلمي وهو الفيلسوف الأمريكي «مورتمج. أدلر» عن سرّ هذا التفاوت المذهل، أجاب: (لأنّه يترتب عدد من العواقب المؤثرة في الحياة وأعمال الإنسان عن تأكيد وجود الله أو إنكاره، أكثر من أيّ مسألةٍ أساسيّةٍ أخرى)⁽¹⁴⁾.

إنني أميلٌ وأرجح أنّ كلّ حياتنا تدور مدار نحو الأسئلة، حتّى حياتنا اليوميّة، نفتح أعيننا إذ نستيقظ في الصباح، وأمامنا أسئلة من قبيل: ماذا يجب أن نفعل في هذا اليوم؟، وكيف نقضي وقتنا؟، وأين سنذهب؟، ذلك اليوم الذي لا نملك فيه إجابة واضحة على هذه الأسئلة لن يكون في الغالب يوماً سعيداً، إنما نكون سعداء حين نعرف كيف نمضي وقتنا، وهو سؤالٌ يوميّ. لكن نثّة أسئلة أخرى أكثر أهميّة، لا تتعلق بحياتنا اليوميّة فقط، بل بمسيرتنا الإنسانيّة كلها، وكما أنّ غياب أجوبة أسئلتنا اليوميّة يفقد أيامنا نكهة السعادة، فإنّ غياب أجوبة أسئلتنا الوجوديّة والكويّبة، يفقد كلّ حياتنا قيمتها ويجرّدها عن المعنى، وقد عبّر عالم الأحياء «دوجلاس أكس»⁽¹⁵⁾ عن هذه الإثارات بأنها تدور في محورها حول «السؤال الكبير عن الإله»: (ما هو المصدر الذي أتى منه كلّ شيءٍ آخر، أو لتقريب الأمر: لأي شيءٍ أو لمن يعود الفضل في وجودنا؟، يجب أن يكون هذا السؤال نقطة البداية للناس المهتمين بأمر الحياة، العلماء وغير العلماء

على قدم سواء. لن نعم بالراحة دون الإجابة! لأن كل ما هو مهم يعتمد عليها بالتأكيد، لنعرف من أين جاء كل شيء علينا معرفة من أين أتينا نحن، وسؤال من أين أتينا يتعلق تماما بمن نحن، وسؤال من نحن يتعلق تماما بكيف يتوجب علينا أن نعيش⁽¹⁹⁾.

ومن هنا يندفع كل الناس بشكل فطريّ إلى تكوين تصوراتهم وأفكارهم التي تتعلق بالمفردات الرئيسة من الوجود والحياة والكون الذي وجدنا أنفسنا فيه، وهو ما نصلح عليه بـ «الرؤية الكونية»، ويتضح لنا من خلال ذلك، أنّ التقدم السريع للعلم والحقول المعرفيّة الطبيعيّة المختلفة لم تُغنِ الإنسان عن البحث في أسئلته الغيبيّة واللاهوتيّة، بل زادت إليها عطشًا وتشوّقًا، وإنّ ما يحتوي عليه هذا الأمر من خطورة بالغة وحضور مدهش في كامل مسيرة الإنسان المكدودة لهو خير برهانٍ عقليّ يدفع المرء أن يقف مع نفسه مليًا للتفكير في هذه الأسئلة التي يمثل جوابها مفصلًا لبرامجه وسائر أفكاره.

وقد تمثّل القرآن الكريم هذا المبدأ، حيث قال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}، وسرى دائمًا في طريقه لإثارة العقل البشريّ نحو أسئلته الكبرى، وربط ذلك بأسلوب بدیع مع مبادئه ومقوماته، وإنما كان ذلك على طريقة: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صادقين}، لا على طريقة: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} التي انتقدتها القرآن مرارًا؛ لأنه يؤمن بخلاقيّة التفكير.. وليس بعقليّة القطيع.

محوريّة مسألة الإله!

ما معنى أن تشغل قضية ما تفكير البشريّة؟!، إنه لمن النادر الأقل أن يهتم جميع الناس بفكرة معيّنة، ولا ينعكس ذلك في العادة عن إلحاح جيني يدفعنا نحو الانقسام، بقدر ما يعبر عن تعدد الكيّنونات الثقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة لعالم الوجود الإنساني.

تأتي «مسألة الله» على خلاف مع السائد في تبعثر الاهتمامات الفكرية، وتجذب إلى حياضها أعظم العقول التي عرفها التاريخ، وأبسط العقول أيضًا، لتقدم تصوّرًا وقرأّةً حولها، وهو ما يكشف لنا بوضوح عن محوريّة هذه المسألة وجوهريّتها، تؤسّر هذه المحوريّة على أمرين أساسيين، يمثلان أصلًا كليًّا عند استعراض مقولة الإله. الأوّل هو الدور الكبير الذي مثّله هذه المقولة في تسلسل ونموّ العقل البشري، ونتيجة ذلك أننا لا نستطيع صناعة تجربة ناهضة للبشر من دون الوقوف على جانب فلسفيّ لاهوتي، والثاني هو مركزيّة هذه المقولة في رسم الخطة العمليّة لحياة الإنسان، ونتيجة ذلك أنّ المسألة أعمق من كونها نظريّة، لأنّ اتخاذ موقف غير صحيّ تجاهها من شأنه أن يعرقل أو يعيق طريق الإنسان في حصد طموحاته وأهدافه. وليس مجرد خطأ في فرضيّة فكرية.

إنّ مدى التفاعل والتداخل والتصوّر الذي أنتجه البشر في مسألة الإله، تنبیه واضح لمن يخوض غمار هذه المسألة أن يخوضها بموضوعيّة وإنصاف، لأنّ التعسّف في ورود المناطق الخطرة دون رعاية تامّة لما تتطلبه من أمانة ودقّة قد يسوق المرء إلى المتاهة والضباب دون شعور، الأمر الذي يدفع بنا إلى تحليل ما تطوي عليه محوريّة مسألة الإله، قبل أن نتخذ موقفًا علميًّا أو عمليًّا تجاهها.

ضمانة المصير الإنساني..

لنفترض أنك قررت قضاء الإجازة الصيفيّة في لندن، أو في أحد الأرياف التّظرة للعاصمة الروسيّة موسكو، سيمنحك ذلك بالطبع شعورًا بالرفاهية، لأنك ستتخلص من عناء الحرارة المرتفعة في الشرق، وإذا سارت الأحداث كما تخطط، فسوف تجد نفسك تجرّ حقائب السفر في ساحة المطار قبل أكثر من ساعتين من موعد الإقلاع، في مثالٍ آخر – أقلّ جذائيّة –، عندما تخرج لأداء الاختبار النهائي لإحدى المواد الجامعيّة، لابدّ أنك ستكون حريصًا على ضبط وقتك، وسوف تأخذ منه مساحة احتياطيّة، فلو كانت المسافة بين مفكّك وبين الجامعة 20 دقيقة اعتياديّة، فالأفضل أن تخرج مبكرًا بما يقارب 40 دقيقة على الأقل قبل موعد الاختبار، بالمقارنة بين الافتراضين، نلاحظ أنك دائمًا ما تحاول أن تأتي بأعمالك على الصورة التي تبعد جميع الأخطار الممكنة.

قد يتفق أحيانًا ولبعض المرّات لشخص ما أن يحضر بالفعل إلى الاختبار النهائي، دون أن يلتزم بشيء من الدقة في الوقت، أو لمسافر يتأخر في الذهاب إلى المطار في حالة من الوجل، فيجد أنّ كامل الرحلة قد تأخرت لثلاث ساعات إضافيّة، إلا أنّ العقلاء لا ينسجون تفكيرهم على هذه الوقائع التّادّرة أو «اللا اعتياديّة»، بل يكون بناؤهم دومًا على ما يتحقق به دفع الأخطار والأضرار، وهو ما يعبرون عنه بـ «الوجوب العقلي لدفع الضرر المحتمل».

من هذه البوابة انطلق الفيلسوف وعالم الرياضيات الفرنسي «باسكال»⁽²⁰⁾ في تعاويه مع مسألة الإله، يعتقد باسكال أنّ الخطورة التي تكتمف بمسألة الإله على المصير الإنساني تفرض علينا أن تكون خياراتنا فيها منضبطة بمسلك العقلاء وحصافتهم، لنفرض أنّ هناك خياران لتمثيل الواقع: أ – الله موجود، ب – الله غير موجود.

إنّ موقفنا الذي سنختاره ونتخذه إزاء هذه القضية لابد أن يكون واحدًا من أربعة احتمالات:

- 1 – أن نؤمن بالله، ويكون الله في الواقع غير موجود.
- 2 – أن نؤمن بالله، ويكون الله في الواقع موجود.
- 3 – أن لا نؤمن بالله، ويكون الله في الواقع غير موجود.
- 4 – أن لا نؤمن بالله، ويكون الله في الواقع موجود.

ومع إضافة مقدّمة أخرى، وهي أنّ فرضيّة الإله تقوم على مبدأ المعاد والمحكمة الأخرويّة، وأنّ هناك جحيمًا وعذابًا يوم القيامة يتعلّق بمسؤولية الإنسان تجاه الإيمان وموقفه منه في الدنيا، فلا بدّ للعقلاء أن يسلكوا مسلكهم في اختيار الطريقة التي تجعلهم في مأمن

وسلامة من جميع الأخطار المحتملة، وبمقتضى ذلك يحكم العقل بضرورة ترك الإلحاد والتباعد طريق الإيمان بدلاً من ذلك، لأنه الطريق المخلص من الاحتمال القائم على الأقل بوجود عذاب وعقاب يوم القيامة، فالملحد لو أخطأ في اعتقاده بعدم وجود الله، وتفاجئ بوجود آخرة وعذاب في الآخرة، سيكون وضعه مأساويًا ومخزياً، أما المؤمن، فعلى أسوأ التقادير – وهو أن يكون مخطئاً في اعتقاده ويكون الله غير موجود –، لن يخسر أي شيء يذكر، وسيكون هو والملحد سواء.

عبر «باسكال» في خواطره: (فلنوازن بين الريح والخسران مرهين أن الله موجود، إذا ربحت فقد ربحت كل شيء، وإذا خسرت فإنك لا تخسر شيئاً. فراهن إذن على أنه موجود ولا تتردد!)⁽¹⁸⁾

عُرفت هذه الفكرة فيما بعد بـ «رهان باسكال»، نعم.. حاول بعض الملحدين أن يناقش هذه الفكرة كـ ريتشارد دوكنز أو برتراند راسل الذي عندما سئل أنه لو تبين فيما بعد أن هناك إله وأخرة فماذا ستقول له إذا سألك لماذا لم تؤمن بي؟ قال: سأقول له أن أدلة وجودك لم تكن كافية!، لكن باسكال في الحقيقة منذ البدء لم يقدم هذه الأطروحة كدليل على وجود الله، بل هو «رهان»، بمعنى أنه يبين مدى خطورة مصير الإلحاد وما ينته للمسلك العقلاني، وهو حجة في المقام العملي، فالمرء إذا لم يكن متأكدًا من موقفه أن الله موجود أو غير موجود، فعليه أن يتعامل في حياته على اعتبار واحتمال وجوده، لأنه هو الأسلم والأحوط بحكم العقل.

الجدير بالإشارة هو أننا من بين كبار الملحدين المعاصرين، لا نجد أن هناك طرفًا واضحًا ينفي بشكل قاطع ويقيني وجود الله فيما بينهم، فأقصى ما يتحدثون عنه هو ترجيح لاحتمال عدم وجود الله على احتمال وجوده، لاحظ ما قاله أحد أبرز دعاة الإلحاد وهو «لورانس كراوس»⁽¹⁹⁾ عند سؤاله: هل أنت مُلحد؟.. (ليس بالمعنى الذي أستطيع أن أدعي حاسماً أنه لا يوجد إله أو غاية من الكون، لكنني لا أستطيع أن أزعم حاسماً أنه لا يوجد إله، بل هو «رهان»)، فهاذا أمر مستبعد بشدة، لكن ما أستطيع أن أزعمه بحسم هو أنني لم أكن لأرغب العيش في كون واحد مع الله، بينما يجعلني ضد الألوهية، كما كان صديقي كريستوفر هيتشنز⁽²⁰⁾

وهو شبيه بتعبير «ريتشارد دوكنز» رأس الإلحاد المعاصر حينما يسأل السؤال ذاته: (فصلت سبع نقاط تمثل معياراً تصاعدياً حول الموقف من الإيمان. تبدأ من كون الفرد واثقاً تماماً من وجود الله، وهذا لنفترضه رقم 1 – في المعيار، وتنتهي بأن يكون واثقاً تماماً من عدم وجود إله، وهذه لنفترضها رقم 7 – على المعيار، ورقم 6 – لأولئك الذين يحملون مقاصد ونوايا أن يكونوا ملحدين، فأنا أعيش حياتي كما لو لم يكن هناك إله، لكنكم لن تجدوا أي عالم من أي اتجاه عقلي يمكن له أن يبرهن لكم على عدم وجود أي شيء، ليس باستطاعتي أن أثبت عدم وجود إله!)⁽²¹⁾

ومن هنا يرد إشكال «باسكال» على كل من كراوس ودوكنز، إذ يفترض في حال قيام الاحتمال بصدق فرضية وجود الله، أن يعيشا حياتهما كمؤمنين لا كملحدين، لأن الإيمان هو المخلص من المعية المحتملة للإلحاد في اليأس الأخرى، ولعل إجابة هذا الإشكال أن مثل دوكنز وإن كان يحتفل بوجود الله، لكنه يرى ذلك الاحتمال ضعيفاً جداً، على النحو الذي يجعله غير جدير بالاهتمام⁽²²⁾.

إلا أن هذا التبرير من دوكنز ليس واثقاً، لأن رهان باسكال ليس ناطراً من حيث الأصل إلى درجة قوة احتمال وجود الله، بل هو ناظر إلى خطورة المُحتمل، فلو كان هناك احتمال 5% أن إناء الماء مسموم، فإن الموقف القاطع لجميع العقلاء اجتناب ذلك الماء وترك استعماله، ومرد ذلك إلى خطورة أثر الاحتمال وإن كان ضعيفاً.

تبقى لنا مناقشة أخيرة وهي هذه المرّة ليست مع دوكنز أو كراوس بل مع باسكال، إذ يبقى الكلام، هل أن باسكال هو أول من اخترع هذا الرهان؟!، أم أنه صاغه فقط في إطار معادلة الاحتمال الرياضي، وقد حاول بعض الباحثين أن يحقق في هذه النسبة، فتوصل إلى أن صاحب هذا الرهان هو أبو العلاء المعري، ومن هؤلاء «د. عادل مصطفى»⁽²³⁾ حيث قال:

(وقد سبق لأبي العلاء المعري أن صاغ هذه الحجة صياغةً بليغةً محكمة في لزومياته إذ يقول:

قال المنجّم والطبيب كلاهما

لا تحشُر الأجداد قلت إيكما

إن صح قولكما فليست بخاسرٍ

أو صح قولِي فالخسار عليكما)⁽²⁴⁾

والصحيح بحسب التتبع أن مبتكر هذا الرهان أو الحجة ليس باسكال (القرن السابع عشر)، وليس أبا العلاء المعري (القرن الحادي عشر)، بل جاءت مرويات صريحة في ذلك عن الإمامين جعفر الصادق وعلي الرضا – ع – (القرنين الثامن والتاسع) في معرض حوارهما العلمي مع فئة الملاحدة «الزنادقة» في زمانهم، كحوارته الإمام الصادق – ع – مع ابن أبي العوجاء – وكان آنذاك رأس الإلحاد –، حين جاءه عند الكعبة المشرفة يحاجه في أدلة وجود الله تعالى... فكان مما قال – ع –: (إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء – وهو على ما يقولون – يعني أهل الطواف – فقد سلموا وعطبتهم، وإن يكن الأمر على ما تقولون – وليس كما تقولون – فقد استوتيم وهم!)⁽²⁵⁾

وورد عن محمد بن عبد الله الخراساني قال: دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن الرضا – ع – وعنده جماعة، فقال – ع –: (أبها الرجل أرايت إن كان القول قولكم وليس هو كما تقولون السنة وإياكم شرعاً سواء، لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟

فسكت الرجل، ثم قال أبو الحسن عليه السلام: (وإن كان القول وهو قولنا أستم قد هلكتم ونجوننا؟ فقال رحمك الله..)⁽²⁶⁾

فقد صدق أهل البيت النبوي بهذه الفكرة للعالم الإنساني قبل غيرهم، وهي تمثل بحق واحدة من أهم مرتكزات التنظير اللاهوتي، بل يمكننا أن نجد لها أصلاً قرآنيًا أيضًا، جاء في الآيات الكريمة على لسان مؤمن آل فرعون: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ

إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعُذُّكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}، وفي آخر سورة الملك: {قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ يَأْتِيكُمْ بِالْحَقِّ
 مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا يَوْمٌ مَعِينٌ} (27)

حاول دوكنز في كتاب – وهم الإله – أن يقرب ما من شأنه أن يدفع هذه الحجّة، فقال أنّه ليس صحيحاً أن الإيمان بالإله يدفع عن
 الإنسان كل ضرر محتمل، لأنه إن دفع عنه الضرر الآخروي المحتمل في الآخرة، فإنه سيوقع حياته ومعيشته في الدنيا في الضرر
 والشقاء، نتيجةً للقيود الدينيّة والالتزامات المتصلة بالعبادة: (يمكننا القول بأنك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راھنت على عدم وجوده،
 فيما لو راھنت على وجوده والذي يعني ضياع وقت ثمين في عبادته... إنني أطالب القارئ الكريم أن يضع هذا في ذهنه عندما تناقش
 العواقب الأليمة التي تترتب على الإيمان ومراعاة التعاليم الدينيّة) (28)

وهذا الجواب من دوكنز يشبه أن تشرب في فصل الصيف عصير المانجو البارد الذي تحتل بنسبة ما أنه شراب مسموم، ولكنك
 تشربه ولا تتجنبه، لأن عدم شربه أيضاً سيضربك حيث سئحرم من مذاقه الشهوي والمنعش. إنه الجنون! إذ أنّ أبسط المقايسة بين
 حجم الضررين والمحتملين يجعل الثاني منهما في حكم العدم.

وتبقى الفائدة العمليّة من وراء هذا الرهان، الإشارة القطعيّة إلى تقدم الموقف العقلاني للإيمان وعدم صحة حسابات ومعايير الإلحاد.

وبعد عرض هذا الرهان، فإنني أقول بكلمة من الإنصاف، إنّ الأفضل في مقام إثبات الإله هو التعرض للأدلة المعنيّة لذلك على نحو
 القطع والحزم اليقيني، لأنها وافرة وكثيرة ودقيقة، وأنّ إفادة هذا الرهان لا تصل إنصافاً إلى درجة إثبات وجود الله تعالى، بل تنحصر
 في اعتماد أنّ خيار الإيمان هو الأفضل للإنسان، ما دام احتمال وجود الله قائماً.

آفاق وأصعدة الحياة الإنسانيّة

عادةً ما توصف مسألة الله بارتباطها بعالم الآخرة، أي أنّها تتعلق بالحياة المنتظرة بعد موت المرء، وهذا صحيحٌ ولكنّه لا يصف المسألة
 بكلّ أبعادها وجوانبها، فالإيمان ليس «فيزاً» لدخول الجنّة، بل هو حالة وجدانيّة تؤدي إلى دخولها، وهذا يعني أنّ أوّل محطة تتمظهر
 فيها آثار الإيمان هي الدنيا.

مسألة الله تتفاعل مع الحياة الأولى كما تصنع الفرحة الأبدية في ربوع الحياة الأخرى، لذلك نعتقد أنّ اختزال الشعور بالله واعتقاده
 فيما بعد تاريخ يوم القيامة، قد يؤدي بصاحب هذا الاعتقاد إلى الفتور والبرود، خصوصاً إذا لم يكن مانوساً بالشوق للآخرة، كما لعله
 حال كثير من الناس.

عندما يؤمن الإنسان بالله، يجعله ذلك أمام فرص عديدة لحصد النجاحات في حياته، ويفعل ذلك في مكنونه الأسس التي يجد بها ذاته
 المحبوة وسط الظروف القاسية، إحساس الجماعة بوجود مهيمن على دقائق الكون يربّب أذهانهم على أن يتعاطوا مع أراجئه
 وأفرادها بأمانة ودقّة، لا تستطيع التجربة الإنسانية أن تبلغ نضوجها دونما إيمانٍ راسخ بالغاية الفريدة فوق الطبيعة.. لتأخذ مثلاً فلاسفة
 القانون والسياسة في خصمّ التحولات السياسية لنهضة أوروبا، فعلى الرغم من موقعهم الصدامي مع الكنيسة، إلا أنهم لم يتراجعوا
 يوماً عن ضرورة صياغة الرابطة الإنسانيّة على أساس ركيزة الإيمان بالله، لأنّها الركيزة الوحيدة التي تجعل الإنسان أميناً على
 الحضارة التي تهدف إليها الشعوب، كتب الفيلسوف السياسي القانوني «جون لوك» وهو الملقب بـ «أب الدولة المدنيّة»، في كتابه
 الشهير حول التسامح، – والذي وضع فيها أسس المجتمع المدني المتحضر وفقاً لمنظوره –: (لا يجوز أبداً التسامح مع من ينكرون
 وجود الله؛ ذلك أن الوعد والمواثيق والأقسام التي هي روابط المجتمع الإنساني لا حرمة لها ولا اعتبار عند الملحد؛ ذلك أن استبعاد
 الله حتى لو كان بالفكر يحلّ كل شيء) (29)

وبغض النظر عن موقفنا إزاء المزاج الإقصائي لجون لوك مع الملحد، إذ يبرّر ذلك بتنكّرهم للرابطة الأصليّة التي يشترك فيها جميع
 الأفراد في هذه الحياة، لكنّ ذلك يفتح لينا آفاقاً للحديث عن آثار الإيمان بالله في صياغة المجتمع وصناعة التقدم عبر العلاقات الإنسانيّة
 والروابط المدنيّة والثقافيّة، وعن آثار الله على نشاطات الإنسان الحيويّة في العلم والصناعة والاقتصاد والقانون، وكيف يمكن أن
 يؤدي غيابها عن قلب الإنسان وفكره إلى مشكلة شموليّة حقيقيّة تلتهم جوانب عديدة من الحياة البشريّة.

إشكاليّة اللا اكرائيّة

ثبت لنا من خلال إلقاء هذه النظرة البنوراميّة على مسألة الإله، أنّها لا تشبه أبداً رمية رياضيّ محظوظ أو غير محظوظ في كرة
 الغولف، وهذا يضع اللا اكرائيّة على المحك، لأنّ عدم إصابة الرمية لا تخصّ هدف الغولف وإنّما تصعب على الإنسان كامل قصّته
 الوجوديّة في مبدأ العالم ومعاشه ومعاذه.

جاء الترتيل الديني محمّراً لصحّ تصور منطقي للعقل تجاه محورتيّ اللا متناهي، وأنّ إغفال «الله» عن تقصير ولا مبالاة إنما ينشأ من
 تصوّر مشوه للحقيقة: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ. وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينِهِ. سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا
 يُشْرِكُونَ}، أي أنه الحقيقة الكبرى التي تدرج تحتها جميع الحقائق الكويّة.

وقد رصد بروفيسور الرياضيات في جامعة أكسفورد «جون لينوكس»⁽³⁶⁾ هذه الحالة المرعبة في بعض الوسط العلمي، حيث ترفض أو تعارض حقيقة بداية الكون لأغراض أيولوجية معادية للإيمان، ومنهم: «آرثر إدينجتون» الذي كان رد فعله كالاتي: «فلسفيًا، فإنّ الفكرة القائلة بوجود بداية للنظام الحالي للطبيعة مثيرة للاشمئزاز، وإنّي أفضل إيجاد بديل آخر لها» وقد شاركه آخرون في شعوره بالاشمئزاز إزاء هذه الفكرة، ففي منتصف القرن العشرين مثلًا طرح كل من «جولد، بوندي، هويل، نارلكيار» سلسلة من نظريات الحالة الثابتة، التي تقول بأن الكون موجود أولاً... أما دافعهم وراء هذا الرأي فقد أثار اهتمام الجريدة العلمية الأسبوعية الراقية «نيتشر» حيث أشار الكاتب العلمي الشهير «جون جريبين» أن نظرية الحالة الثابتة التي وضعها هويل مع بوندي اكتسبت الكثير من زخمها من المشكلات الفلسفية واللاهوتية التي تثيرها فكرة بداية الكون، ولا سيما السؤال عن الشيء أو الشخص المسؤول عن هذه البداية.

ومن مشاهير العلماء الآخرين الذين يجدون فكرة البداية مقززة «جون مادوكس» وهو محرر سابق في «نيتشر»، فقد صرح أن فكرة البداية غير مقبولة إطلاقاً! لأنها تنطوي على منشأ نهائي للعالمنا، وتعطي المؤمنين بنظرية الخلق مبرراً وافرًا لمعتقداتهم⁽³⁷⁾

على طرفٍ آخر، أوقع هذا الكشف العلمي تأنيلاً كبيراً لفلاسفة الإلحاد لإعادة التّطر في موقفهم الفكري، خصوصاً بعد أن كان مستند كثير منهم البناء على «أزلية المادة»، وأنّ افتراض بداية للكون لا داعي له، ومنهم الملحد الشهير الذي تحوّل في نهاية الأمر إلى الإيمان «أتونى فلو»⁽³⁸⁾، حيث يقول: (عندما تعرّفت كملحد على نظرية الانفجار الكبير، بدا لي أنها أحدثت فرقاً كبيراً، لأنها تقول بأن للكون بداية... طالما أن الكون يمكن أن لا يكون بلا نهاية فحسب، بل بلا بداية أيضاً، فيبقى من السهل أن ترى وجوده ومعظم معالمه الرئيسية كحقائق ذاتية، وإذا لم يكن هناك سبب يدعوا للاعتقاد بأن للكون بداية، فإنه لا حاجة لافتراض وجود شيء ما خلق كل شيء كمصادرة، ولكن نظرية الانفجار الكبير عبّرت كل شيء!، فإذا كان للكون بداية، فإنه يصبح من المشروع تماماً، بل لا مفر من إثارة السؤال عن الذي أنتج هذه البداية، وهذا ما يعبّر الوضع بشكل كامل!)⁽³⁹⁾

أكوان بديلة عن الله!

مع غض النظر عن الاشمئزاز أو التحير الذي ينتاب البعض عند الحديث عن ولادة العالم من رحم العدم، فإنّ مجموعة من الفيزيائيين ادّعوا أن حقيقة بداية كوننا الماثلة أمام العلم، وإن كانت تحيل الذهن مباشرة على الله، إلا أنها ليست الفرضية الوحيدة كما قد تتصور في اللحظة الأولى، وذلك لما يسمى بفكرة «الأكوان المتوازية» المفيدة بأن كوننا الذي نعيش فيه هو «فقاعة» في وسط نسيج من الأكوان الأخرى السابقة والممتدة والمتوالدة، التي لا تجعل من الضروري أن يكون هذا العالم قد صنع بإحكام وخلق من أجل غاية، كتب هوكينج: (إن الضبط الدقيق في قوانين الطبيعة يمكن تفسيره بوجود الأكوان المتعددة...، وأنه يمثل ذلك يمكن لمفهوم تعدد الأكوان أن يفسر الضبط الدقيق للقانون الفيزيائي دون حاجة لوجود خالق خيّر يقوم بخلق الكون لمنفعتنا)⁽⁴⁰⁾

وبحسب توصيف «مارتن ريس»⁽⁴¹⁾ ف: (إذا كان هناك مخزون كبير من الألبسة لن يفاجئك العثور على بدلة تناسبك. وإذا كانت هناك أكوان كثيرة وكل كون تحكمه مجموعة مختلفة من الأرقام فسيكون هناك واحد؛ حيث توجد مجموعة من الأرقام الملائمة للحياة، ونحن في هذا الواحد)⁽⁴²⁾

وكثيراً ما توضع فكرة الأكوان المتوازية في قبال برهان النظم أو ما يعرف حالياً بالتصميم الذكي، لكن بحسب نظري فإنّ فكرة الأكوان المتوازية إذا جيء بها في هذا السياق فهي أوسع من القول بأن دليل التصميم غير كافي، لأنها تمتد لتعطي الظاهرة الكونية ذاتية في وجودها، فستصبح الأكوان تتوالد إلى ما لا نهاية دون حاجة لإيجاد، أي أزلية. وقد سُرّ «ريتشارد دوكنز» الرأس الإلحادي في ماكنة الإعلام العالمية بهذا التوجه الذي تزعمه هوكينج، من نفي حجج وجود الله باستعمال أدوات فيزيائية، وبحسب تعبيره: (لقد طرد داروين الإله من البيولوجيا، ولكن الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحاً، وبسدد الآن هوكينج الضربة القاضية)⁽⁴³⁾

وعلى كل حال، سنرى إن كانت هناك ضربة قاضية بحسب تعبير دوكنز هذا، أم أنها ضربات ورقية واهية في حقيقة الأمر! وهنا نسجل مجموعة من الملاحظات الهامة على هذه المقولة – الأكوان المتوازية بديلة عن الله –:

خارج خريطة العلم

الأكوان المتوازية فكرة تخرج عن قاموس العلم. إذ لا يمكن إقامة دليل تجريبيّ مختبريّ يفيد القطع بها أو السكون إليها، وليس غروراً لو أننا عدناها في إطار «الغيبّات»! فإنّ الفيزياء لا يمكنها قيادة الإنسان في رحلة الاكتشاف إلى ما هو أبعد من لحظة الانفجار الكبير.. وعليها أن تسلّم الريادة حينئذٍ للفلسفة والعقل المجرّد، وهذا ما صرّح به الباحثون في فيزياء الكونيات عند توصيفهم لمنظومتهم المعرفيّة، وهنا نلاحظ مقولة هوكينج: (حتى لو كانت هناك أحداث قبل الانفجار الكبير، فإن المرء لا يستطيع استخدامها لتحديد ما سيحدث بعدها، لأن القدرة على التنبؤ تنهار عند الانفجار الكبير. وبالمقابل، إذا كنا نعرف فقط، كما هو الحال فعلاً ما قد حدث منذ الانفجار الكبير، فإننا لا نستطيع أن نحدد ما حدث قبل ذلك. ويقدر ما يخصنا فإذا الأحداث قبل الانفجار الكبير لا يمكن أن يكون لها نتائج وهكذا فإنها ينبغي ألا تشكل جزءاً من أي نموذج علمي عن الكون. وإذن ينبغي أن نحذفها من النموذج ونقول إن الزمان له بداية عند الانفجار الكبير)⁽⁴⁴⁾

وقاد ذلك أمثال فيلسوف العلم «كارل بوبر»⁽⁴⁵⁾ إلى رفض عدّ هذه النظرية نظرية علمية، بناءً على مبدأ قابلية التكذيب والاختبار العلميّة الذي جعله ميزاتاً للفصل بين العلم و«العلم الزائف»: (فإن معيار الوضعية العلمية لنظرية ما هو إمكانية تكذيبها أو تفنيدها أو اختبارها)⁽⁴⁶⁾

وهو نظير تعبير بول ديفيز الذي يجنح إلى عدم اعتبار فكرة الأكوان المتوازية علمية بمقدار ماهي متجدّرة في الميتافيزيقا: (إن فكرة الأكوان المتعددة أو الوقائع المتعددة (multiple realities) بقيت في دوائر الفلسفة لقرون، غير أن التبرير العلمي لها هو أمر جديد)⁽⁴⁷⁾

أشير أيضاً أنه من أجل التغلب على هذه التحديات. بُذلت جهود علمية صنيعة في الآونة الأخيرة، يؤسّر على ذلك الخبر الذي نشرته وكالة ناسا الفضائية الشهيرة عمّا يعمل عليه فريق مختص من الباحثين ومعهم «ماتيو جونسون» من محاولات حثيثة لمحاكاة ظروف

خاصة قابلة للاختبار للتنبؤ بما جرى قبل لحظة الانفجار الكبير، على الأخص بالنسبة لفكرة الأكوان المتوازية أو المتعددة، ويهدف هذا الأمر إلى نقل «نظرية الأكوان المتوازية» من محزّذ قصة أو خاطرة فلسفيّة إلى حقل العلم الطبيعي، إلا أنّ هذه الجهود لم تنجح لحد الآن في تحقيق هذه الغاية بحسب إفادة الوكالة⁽⁴⁸⁾.

وتفتّح هذه الظاهرة على النزعة العلميّة أسئلة المعيارية مصراعيها، وبالأخص تلك النزعة المناكفة للأديان باعتبارها تحمل إنباءات غيبية لعوالم غير مرصودة لا تخضع للبرهان التجريبي، كفكرة الملائكة أو الوحي أو الله تعالى، إذ كيف لهذه النزعة بذاتها أن تتحرك في الطرف الآخر نحو إنباءات غيبية خفية غير مرصودة أمام المختبر، إرضاءً للإيدلوجية التي تحملها هذه المثرة، والفارق الوحيد أنّ هذا الغيب الذي تسوّق له نزعة العلميّة مصدره الأيدلوجيا الإلحادية وليس الله، وعلى ضوء هذا البيان يمكننا أن نقف مقتنعين إزاء مسؤوليتنا في موضوعيّة البحث أنّ الأكوان البديلة لا يمكن أن تشكل عثرة للإيمان بالإله.

تعقيد النظام

ثمّة لازمٌ آخر لفرضيّة الأكوان المتوازية، وهو أنّها تستلزم طبيعتها زيادةً من التعقيد في نظام الكون. وكلّما زاد التعقيد في مشهد الخلق ارتفعت نسبة احتمال صدق المقولة التي تعزو الأشياء إلى صانع مدبّر، فإذا كان قبول كون واحد دونما إله عسيرًا على منطق العقل، فقبول بحر متلاطم من الأكوان اللامتناهية أشدّ غرابية وصعوبة، وهكذا تستبطن فكرة الأكوان المتوازية دون شعور نتاج عكسيّة قد تصب في رصيد الإيمان بدلا من الإلحاد ونكران الله. وهو ما عبر عنه أنتوني فلو بشكل مثير في كتابه «هناك إله»: (كما ذكرت سابقاً، لم أجد فكرة الأكوان المتعددة مفيدة. وقلّت أيضاً أن التعاطي مع فرضية الأكوان المتعددة كمصادرة هو بحقّ بديل يائس. إذا كان وجود كون واحد يحتاج إلى تفسير، فإن وجود أكوانٍ يحتاج إلى تفسير أكبر بكثير، وعندها يتضاعف حجم المشكلة بمقدار عدد الأكوان الكلي. هذا الوضع يبدو مثل طفل صغير لا يُصدق مُعلّمة ادعاءً بأنّ الكلب أكل كُرّاسة واجبه المدرسي، فيستبدل ذلك بالادعاء بأن مجموعة من الكلاب أكلت كُرّاسة واجبه)⁽⁴⁹⁾

وقد أشار «نيل مانسون»⁽⁵⁰⁾ إلى مدى زيادة التعقيد الذي تُثيره فرضيّة الأكوان المتوازية إذ قال: (اعتراض [هذا الكون تحديداً] يبنى على العديد من الافتراضات الميتافيزيقية المشكّلة. أهم هذه الافتراضات تتضمن القول بأن الكون قد يتخذ فيما أخرى للمتغيرات الكونية. يعتمد تحديد ما إذا كانت قيم هذه المتغيرات من ضمن الخصائص الأساسية للكون على ما تنص عليه النظريات الفيزيائية المتعلقة بالأكوان المتعددة.. إنه يجب وضع المزيد من الأعمال الأساسية العلمية والفلسفية قبل أن يمكن اعتبار فرضية الأكوان المتعددة بحق على أنها تشرح التصميم الظاهري أو تفشل في تفسيره)⁽⁵¹⁾

وبحسب شرح «ألين بلانتيجا» لهذه المقولة فقد: (أثار مانسون سؤالاً مهماً: ما هو نوع هذه الأكوان المفروضة؟ والسؤال الذي يسبقه منطقياً: هل هذه الأكوان مادية؟ نتحدث وكأن الأكوان عبارة عن ركام أو تلال من الرمل، ولكنها قد تكون على النقيض من ذلك. توجد حبيبات من الرمل [لنسلم جلا بذلك] ولكن الاعتقاد بأن حبيبات الرمل هذه المترامية بجانب بعضها البعض تشكل مجموعاً إضافياً مختلفاً. عن هذه الحبيبات المفردة [التل] ليس اعتقاداً بديهي الصواب)⁽⁵²⁾

وبعبارة أخرى فإن مقدار ما تُخلّفه فكرة الأكوان المتوازية من الفجوات والإشكالات يجعلها هي بنفسها عصيّة على التفسير، فضلاً أن تكون مُفسّرة لظاهرة أخرى. فلا يمكنها بعد ذلك أن تستقل بنفسها الإنسان في كشوفه الوجودية عن تكوّن العالم.⁽⁵³⁾

إله هوكينج

هل تنفع عبارات هوكينج في جعل الإيمان وهماً؟ أو تكلفاً زائداً على الأقل! وعلى فرض صحة الأكوان المتعددة فهل يصح أن تكون تلك الأكوان بديلة عن الله. بشيء من التأمل في هذه الأسئلة يتبادر إلى أذهاننا أنّ الأكوان البديلة ستحل محل الله فقط في حالة تفسيرها للوجود تفسيراً شاملاً عن القول بالله. ولكنني ألفت القارئ أن لا يقع في مصيدة الألفاظ، فلربما كانت «الأكوان المتوازية» تعبير آخر عن الإله، أي أنّ السمة الأساسية التي يعتقدونها المؤمنون في الله هي بذاتها ما يعتقدونه الملحدون في الأكوان المتوازية!

أعود لأذكر بأنّ نجاح فكرة الأكوان المتوازية في استبعاد الله يتوقف على تقديمها تفسيراً وافياً للوجود من دون قوّة خلاقية، ولأجل ذلك اعتبروا أنّ الأكوان المتوازية لا متناهية «أزليّة»، وإلا لو قبل بأنّها أكوانٌ تولدت في لحظة خاصة من رحم العدم لما كان قولاً مفيداً من رأس، لأنّ بداية هذه الأكوان المتوازية ستحتاج بدورها إلى تفسير يستلزم وجود قوة موحدة. وأنت تعلم بأنّ هاجس تعدد الأكوان إنما نشأ للحدّ عن الاشمئزاز الناشئ عن القول بوجود بداية للكون.

فإنّ النموذج الذي يرفع بارقة «الأكوان المتوازية» يقدمها كوجود أزليّ مستقل [غير محتاج إلى وجود سابق] ويعزو نشأة العوالم إليه. وهذا هو جوهر ما يعتقدونه المؤمنون في الله.

وقد كتب «العلامة الحلي»⁽⁵⁴⁾ في هذا المعنى: (لا شكّ في أنّ هنا موجوداً بالضرورة، فإن كان واجب الوجود لذاته، فهو المطلوب، وإن كان ممكناً، افتقر إلى موجد بوجوده بالضرورة)⁽⁵⁵⁾

والمعنى من ذلك أنّ الاعتقاد بأي وجود خارجيّ في العالم ينتهي إلى أحد احتمالين:

• إمّا أن نعتقد بأنّ هذا الوجود مستقلٌّ في وجوده عن غيره، فإن اعتقدنا بذلك فقد اعتقدنا بالإله في الحقيقة، لأنّ الإله هو الوجود المستقل في وجوده عن غيره.

• وإما أن نعتقد بأنّ هذا الوجود محتاجٌ في وجوده إلى غيره، ويؤدي بنا هذا المطاف كذلك إلى الاعتقاد بالوجود المستقل الذي أفاض وأبدع هذا الوجود المحتاج، وهو نفس تعبيرنا عن الله.

ويتطبيق عملياً، فإنّ الأكوان المتوازية إما أن تكون محتاجة في وجودها إلى غيرها، فلا بد أن تُسند إلى وجودٍ أعلانيٍّ مفيض، وإما أن تكون غنيّةً مستقلةً أزليّةً في وجودها، فيثبت أنها في الحقيقة ماهي إلا تعبيرٌ لفظيٌّ عن الوجود الأعلانيّ المفيض [الله].

نعم. توقّر هذه الثنائيّة مجالاً واسعاً للكلام في صفات هذا الوجود الأعلانيّ المفيض وسماته وحقيقته، فيمكن أن يقال بأنّ هذا الوجود المفيض غيرٌ مختار، أو غير عالم بذاته، أو أنه لا يبعث الأنبياء مثلاً، لكنّها في الجهة المقابلة توضح لنا عباتاً بأن فكرة الأكوان المتوازية قاصرة عن نفي الإله من المبدأ، بل إنها في الواقع قد تكون تعبيراً آخر مساوق في معناه لمعنى تعبير «الإله».

والكلام في صفات الإله غير الكلام في وجود الإله، وله نسقه الخاص من المقدمات والأساليب البرهانيّة. التي تثبت تبعاً لثبوت وجوده، وإلا أصبحت سالبة بانتفاء الموضوع.⁽⁵⁶⁾

من خلق الله؟!

إذا كنت ستفسّر وجود العالم بوجود الإله، فكيف ستفسّر وجود الله؟ وإذا كان ثمة شيء يمكن أن يوجد بذاته فلماذا لا يكون هذا الشيء هو الكون نفسه. وليس الخالق؟! هو سؤالٌ طبيعي من أسئلة الدمى والأطفال والفلاسفة، وهو السؤال الذي أزعج الفتاة النرويجية «صوفي أمندسن»⁽⁵⁷⁾ ذات الأعوام الأربعة عشر إذ راودها في الحديقة القابعة بين المدرسة والمنزل، بحسب خيالات الروائي الشهير «جوستاين غاردر»⁽⁵⁸⁾ فقد وجدت صوفي رسالة لها على صندوق الرسائل البريدية المعلق إلى جنب باب الحديقة، كتبت في تلك الرسالة سؤالاً ظنّته يديهاً لأول وهلة: «من أنت؟! «لنكتشف فيما بعد خلاف ذلك، وفي المرّة الأخرى من زيارتها للحديقة. تجد سؤالاً أشدّ حيرةً وتولّفاً: «من أين جاء العالم؟!»

يقودها ذلك السؤال إلى سلسلة طويلة من الخيالات في أجواء الحديقة النرويجيّة الخلّابة، فتحدث نفسها، دعونا نستمع لـ غاردر وهو يكمل لنا الحكاية: (إذا كان مصدر الكون في شيء آخر، فلا بد أن هذا أيضاً، قد خلق يوماً. وانتبهت صوفي إلى أنها لم تفعل أكثر من نقل المسألة. لا بد، أنه في لحظة ما، قد انبثق شيء من العدم. ولكن هل هذا معقول؟ أليس تخيله مستحيلًا بقدر استحالة تخيل فكرة عالم موجود منذ الأزل؟ في المدرسة، علموها أن الله قد خلق العالم، وها هي تحاول أن تجد بعض العزاء في هذا التفسير. لكنه لا يكفيها تماماً. جيد الله خلق العالم. ولكن الله اذن؟ هل كان قد خلق هو الآخر انطلاقاً من لا شيء؟ هذا أيضاً غير مفهوم. فإذا اعتبرنا أن الله يستطيع أن يخلق ما يريد، فلا بد أنه كان شيئاً ما قبلاً كي يستطيع خلق نفسه. لم يتبقّ إلا حلٌّ واحد: أنّ الله كان موجوداً دائماً...)⁽⁵⁹⁾

وكعادة «ستيفن هوكينج» الذي يعشق أن يستورد الأسئلة الكبرى من الفلسفة – الميتة في نظره – إلى الفيزياء النظرية، يقول: (تخبرنا قوانين الطبيعة بالطريقة التي يسلك بها الكون، لكنها لا تجيب عن أسئلة لماذا؟ وهي الأسئلة التي وضعناها في بداية هذا الكتاب

لماذا يوجد شيء ما بدلا من لا شيء؟

لماذا نحن موجودون؟

لماذا هذه المجموعة من القوانين وليس مجموعة أخرى؟

قد يزعم البعض أن إجابة تلك الأسئلة هي أن هناك إله قد اختار خلق الكون بهذه الطريقة. ومن المعقول أن نسأل من أو ما الذي خلق الكون، لكن إن كانت الإجابة هي الإله، فسوف ينحرف السؤال وحسب ليكون عن خلق الإله.. من المقبول حسب تلك الرؤية وجود كيان ما ليس بحاجة لخالق، ويسمى هذا الكيان إلهاً، يُعرف ذلك بالعلّة الأولى على وجود الله. ونحن نزع مع ذلك أنه من الممكن الإجابة ك الأسئلة داخل مجال العلم على نحو خاص من دون استحضار لأي قوى ربانية)⁽⁶⁰⁾

يوضح هوكينج هنا أنّ مشكلته الرئيسة مع فكرة الله هو أنها غير مفسّرة، فإذا كان الشيء لا يوجد من العدم فكيف وُجد الله؟ وإذا كان يمكن للشيء أن يوجد من العدم فما الحاجة إلى الله؟!

وهو نظير ما أثاره دوكنز بقوله أنّ: (التصميم ليس بديلاً بالأساس لأنه يؤدي لأثارة مشكلة أكبر من المشكلة التي حلها: من خلق الخالق؟ الصدفة والتصميم حلان فاشلان لتلك الا احتماليه المنطقية، أحدهما المشكلة والآخر مجرد إرتداد لها. الانتخاب الطبيعي هو الحل الوحيد الفعال الذي نعرفه حتى اليوم)⁽⁶¹⁾

وهذا الإشكال – وإن بدا وجيها من قبل الدمى أو الأطفال أو دوكنز أو الناس الاعتياديين – لكنه لا يليق بشخصية فذة علمياً كهوكينج لأنّ إجابته تتعلق بـ ألف باء الفلسفة، ولكن الفلسفة بطبيعة الحال لا تعطي بيدها لمن يستعديها أو يراها سخيفة.

قد يبدو أننا سببينا شيء من «الإرهاق الفلسفي» في طريق معالجة هذا الإشكال، ولربما يكون ذلك صحيحاً لكن ليس لأنّ السؤال يشكل معضلة عصيّة؛ بل لأنّ الإنسان المعاصر لا يأنس عادةً بالتفكير في المجردات. يفترض كل من هوكينج ودوكنز أن «فكرة الله» غير صحيحة في تفسير العالم، لأنها تعجز عن إجابة سؤال خالق الله، ولكنّ الفرضيات لا تفشل إذا لم تُجب على الأسئلة مطلقاً، إنما تفشل الفرضية إذا فشلت في الإجابة على سؤال صحيح، وليس كلّ سؤالٍ يوجّه للفرضية صحيحاً بالضرورة.

«ما هو طعم اللون الأخضر؟!» هو مثال مبسط للأسئلة الخاطئة، لربما تقول أنه حار كحبات الفلفل أو بارد كالخيار أو حامض كالليمون. وليس أي واحد من هذه الإجابات صحيحة بالبداية، لأن السؤال خاطئ من الأصل، واللون الأخضر ليس مما يُدَوَّق حتى يكون له طعم، أي أن عدم الجواب ناشئ من قصور السؤال لا من ضعف الفرضية. جرّب أسئلة أخرى شبيهة [هل جهاز الأبياد سعيد أم حزين؟] مثلاً.

بشيء من التأمل سيتضح أن سؤال «من خلق الله؟» نموذج كبير للأسئلة الخاطئة، فمن المعقول أن نسأل عمن خلق الكون لأننا نعرف أن للكون بداية مشخصة للعلم، ولكن فكرة الله قائمة على مفهوم الأزلية أي أنه لا بداية له ولا نهاية، فلا بطراً على العقل أن يطرح سؤال الخالق إزاء هذا النوع من الوجود، لأن الخلق يتعلق «بالحدوث» أي عدم الوجود في رتبة سابقة ثم تحققه بعد ذلك، أمّا فكرة الله فهي تستلطن الوجود الإلهي كسمة قائمة بذاتها غير محتاجة لإضافة خارجية لأنها غير حادثة، غير مسبقة بعدم، وهي ميزة الله على الكون في الاستغناء عن الموجد.

هذه ليست من مقولات الفلسفة العويصة، يمكننا ملاحظة السمات القائمة بذاتها في طبيعة الأشياء في حياتنا من دون أي تكلف، أنت تعرف أن كوب الشاي الذي تنشره صباحاً يحتاج لإضافة شيء من السكر أو العسل ليكون مذاقه حلواً، وتعرف كذلك أن حلاوة السكر والعسل سمة قائمة بذاتها لا تحتاج لإضافة خارجية [لا تحتاج لمزج شيء بالعسل أو السكر ليكون حلواً، خلافاً للشاي]، والسبب في ذلك ببساطة هو أن حلاوة الشاي عارضة «حادثة: مسبوقة بعدم»، أمّا حلاوة العسل مثلاً فهي سمة ذاتية قائمة بذاتها.

وقد عالجت الفلسفة الإسلامية بدقة هذه المسألة في مبحث «استحالة التسلسل»، وهنا أقتبس من كلمات أحد أفذاذها المعاصرين وهو الفيلسوف «الشيخ مصباح يزدي»⁽⁶²⁾ في محاولة بديعة منه لتحرير الفكرة من التعقيد: (لو فرضنا أن هناك فريقاً لسباق الركض، قد وقف أعضاؤه جميعاً على خط الانطلاق، متأهبين للركض، ولكن كل واحد قد قرّر في نفسه أن لا يبدأ بالركض إلا إذا بدأ صاحبه، فلو كان هذا القرار شاملاً للجميع، فسوف لن يبدأ أيّ منهم بالركض، ولن يتحقق الركض إطلاقاً! وكذلك إذا كان وجود كل موجود مشروطاً بتحقيق الموجود الآخر، فسوف لن يوجد أي موجود، إلخ... فتتحقق الموجودات الخارجية دليل على وجود موجود غير محتاج وغير مشروط)⁽⁶³⁾

وتوضيح بيان يزدي: أن تحقق الوجود الخارجي للعالم – وهو ما ندرکه بالبداية – ينتهي بالعقل إلى وجود نقطة أولية لم تحتج إلى إفاضة وجودية من الخارج، لأنه لو كانت جميع النقاط الوجودية محتاجة إلى إضافة خارجية – إلى مالا نهاية –، فلن تكون هناك أي نقطة على الإطلاق قادرة على التحقق في الوجود، لأن جميع الأشياء تحتاج إلى ما قبلها.. إذ لا يوجد في البدء لنقطة متفردة تختزن طاقة الاستقلال في الظهور على صفحة الواقع، إن وجود هذا الكون يدل بالضرورة على أنه انطلق من نقطة أولية مستقلة وغير محتاجة. وإلا لن يستطيع أي شيء أن يوجد.

إذا كنت قد شاهدت لعبة سقوط أحجار الدومينو فسيسهل عليك كثيرًا فهم فكرة «العلّة الأولى»، أرجح أنك قد صادفت يومًا هذه الحالة الفنية أثناء متابعتك لمقاطع الـ Reels على منصة الـ TikTok، حيث تسقط مجموعة كبيرة من الأحجار تباعًا نتيجة لتحريك قطعة حجر واحدة في البدء؛ من الواضح أن حركة كل قطعة من أحجار الدومينو تتوقف على حركة القطعة السابقة لها، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للقطعة الأولى حيث أنه لا وجود لأي قطعة قبلها، إنها في الواقع تنطلق من محرّك خارجي [كالإنسان أو آلة أو هواء] لنفترض أن هناك فضاء غير محدود قد صُفّت فيه أحجار الدومينو إلى مالا نهاية، ولم يقم أي شخصٍ أو شيء بتحريك أي قطعة منها، والذي سيحصل؟! ببساطة لن تبدأ اللعبة، لن تتحرك الأحجار!

وهذا يجعلنا ننتعج دائمًا بأنّ انطلاق أحجار الدومينو فعلاً، لا يمكن أن يتم لو كانت جميع الأحجار تنتظر أحجار سابقة لها، نفترض ببدايتها دائمًا أن أحدًا أو شيئًا خارجيًا مستقلًا – غير الحجر – هو من حرّك الحجر الأوّل وأحدث عاصفة التقاء الأحجار بوقعها الموسيقي..

لماذا لم يدرك هوكينج ذلك؟! يذكرنا هذا الاختلال في ترتيب النتائج بحقيقة أن الفيزياء بأدواتها المتمخّصة في العلم التجريبي لا يمكن أن تتفرد بصياغة رؤية كونية صحيحة، إلا مع حضور قواعد كئيّة حاكمة على منطق التفكير، وهذا هو تمام نقد عالم الفيزياء «مارتن ريس» لصديقه ستيفن هوكينج حيث يقول في تصريحه لصحيفة الإندبندنت البريطانية: (أنا أعرف «ستيفن هوكينج» جيدًا إلى درجة تسمح لي أن أكون على معرفة بأنه قد قرأ القليل جدا من الفلسفة، وأقل من ذلك في اللاهوت، ولذلك فلا أعتقد أن علينا أن نعطي أي وزن لأرائه حول هذا الموضوع)⁽⁶⁴⁾

اختزال النقطة المتفردة لمفهوم الوجود

إذا كنّا انتبهنا إلى أنّ انطلاق العالم لا يمكن أن يتم دون افتراض نوع خاص من الوجود المتعالى عن غيره والمستقل عن طبائع الأشياء، فلماذا يجب أن يكون ذلك هو الله!، إنّ الكون ذاته هو الأخرى بهذه الصفة، وتعبير آخر فإنّ الكون هو الذي لا يحتاج لموجد وليس الخالق، مالم الذي يمنع من ذلك حقًا؟!

هذا ما فهمته شخصيًا من بعض كتابات المهتمين بالفيزياء، فإنهم في الواقع يعتقدون بوجود مستقل وأعلاني – وهو وجود الكون –، تتقدم تفسيراتهم لذلك فيما يرتبط عادةً بالظروف الأولى لنشأة الانفجار العظيم، يعبر عن تلك الحالة التي نشأ الكون خلالها بالنقطة المتفردة، حيث تكون المسافة بين الزمان والمكان معدومة، وحيث كانت الطاقة كلها مكدودة في ذرة وجودية متناهية في الصغر، حيث تقف جميع معارفنا بالطبيعة وتفقد قدرتها على التفسير، كتب «بيتر آتكينز»⁽⁶⁵⁾: (عنصر الزمكان يولد مادته في عملية تجميعه الذاتي لنفسه)⁽⁶⁶⁾ أي أن النقطة المتفردة – التي انفجرت قبل 13.7 مليار عام، ذلك الانفجار الذي تولّد عنه كوننا بكله – هي العلة الأولى وليس الله، ولكننا بطبيعة الحال لا نوافق على هذه الفكرة، ونرى أن وراء تلك النقطة ما ورائها.

الحقيقة أنّ أهم دوافعنا لرفض هذه الفكرة، هو أنّ النقطة المعبر عنها بالمتفردة لا تمثّل البداية التي تطلّ بنا على الأبد، وإنما تمثل البداية التي تطلّ بنا على انهيار قدرتنا على التفسير العلميّ الكوسمولوجي، أي أنّها النافذة التي ينتهي فيها حد العلم وتشرف على الميتافيزيقا، بعبارة أخرى، ليست النقطة المتفردة – بحسب الكشف الفيزيائي – أقصى ما هو موجود في الواقع، بل هي أقصى ما يُمكننا معرفته بأدواتنا الطبيعية التجريبية، وهذا ما شرّحه «بيتر كولنز»⁽⁶⁷⁾ بقوله: (إذا استخدمنا هذه الحسابات من أجل عكس تمدد الكون وأرجعنا عقارب الساعة إلى الوراء انطلاقًا من حالة الكون الحالية، فسنجد أن الكون يصبح أكثر كثافة كلما عدنا بالزمن إلى الوراء. وإذا حاولنا العودة أكثر وأكثر فسنستدعى الحسابات الرياضية عند «نقطة التفرد»... أغلب علماء الكونيات يفسرون نقطة تفرد

الانفجار العظيم بالطريقة عينها التي يفسرون بها نقطة تفرد الثقب الأسود التي ناقشناها سابقاً: بمعنى أن معادلات أينشتاين تنهار عند نقطة ما في الكون المبكر؛ بسبب الظروف الفيزيائية المتطرفة التي كانت موجودة وقتها. وإذا صح هذا الافتراض فإن أملنا الوحيد لفهم المراحل المبكرة من تمدد الكون سيكون التوصل إلى نظرية أفضل. ولأننا لا نملك مثل هذه النظرية إلى الآن، تظل نظرية الانفجار العظيم غير كاملة... وهذا السبب الذي يجعل من الملائم لنا أن نقول «نموذج» الانفجار العظيم، لا «نظرية» الانفجار العظيم. فمشكلة عدم معرفتنا بشأن الظروف الأولية للكون هي السبب الذي جعل علماء الكونيات عاجزين إلى الآن عن الإجابة عن بعض الأسئلة الأساسية⁽⁶⁸⁾

أضف إلى ذلك أن النقطة المتفردة لا يمكن أن تفسر ظاهرة الكون تفسيرًا شاملاً، لأن مقدار ما فيه من الضبط الدقيق المتناسق مع حفظ نظامه وظهور الحياة على مسرحه يجعل القول بكونه صادراً عن إرادة عاقلة أو مبدعة ضرورةً بديهية. ويضحي معه القول بصوره عن نقطة متفردة غير مؤهلة بالوعي والاختيار الحكيم في ظل تناقضات مجهولة علمياً أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، وهذا هو عين ما ذكره الفيزيائي الشهير «تشارلز تاويز»⁽⁶⁹⁾ الفائز بجائزة نوبل في الفيزياء عام 1964 م: (أرى أن السؤال عن الأصل سيظل دون إجابة إن درسناه من وجهة نظر علمية. ولذلك، أؤمن بالحاجة إلى تفسير ديني أو ميتافيزيقي. وأؤمن بمفهوم الله وبوجوده)⁽⁷⁰⁾.

والإنصاف أنّ كلمة تاويز تستحق مئاً كل التقدير والشعور، لأنها نموذج نادر للموضوعية المفتقدة في هذه الأيام، خصوصاً في مثل هذه الأبحاث الكبيرة، وتذكرني هذه الحالة المشار إليها في كلمته – الإصرار على نفي الإله باستعمال العلم على الرغم من قصور معرفتنا بطبيعة نشأة الكون بل وافتقادنا لكثير من أدوات البحث فيه – بحوارية رائعة للإمام الصادق – ع – مع زنديق [ملحد مصري] ذكره فيها بالتناقض المنطقي بين إنكار الإنسان المتعسف للخالق وبين ضالته العلمية المريعة في معظم موضوعات الحقائق.

وقد نقل الشيخ الكليني هذه الحوارية بهذا النص – وهو طويل أقتطع منه موضع الشاهد –:

(قال أبو عبد الله – ع – للزنديق: أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟!)

قال: نعم، قال فدخلت تحتها؟ قال: لا، قال: فما يدريك ما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أنني أظن أن ليس تحتها شيء، فقال: أبو عبد الله – ع – فالظن عجز، لما لا تستيقن؟.. ثم قال أبو عبد الله: أفصعدت السماء؟ قال: لا، قال: أفتردي ما فيها؟ قال: لا..

قال – ع –: عجا لك لم تبلغ المشرق.. ولم تبلغ المغرب.. ولم تنزل الأرض.. ولم تصعد السماء.. ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهن.. وأنت جاحد بما فيهن.. وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟!⁽⁷¹⁾

أظنّ أنني قدمت إلى هنا مجموعة أفكار التي يمكن أن تتصل بموضوع ولادة العالم وما يتعلّق به في إثبات وجود الله أو ما قيل في نفيه، وسأحاول أن أستوفي جوانب ذات صلة بالموضوع عند الكلام عن «التصميم الذكي».

لهذا يتطلب البحث اليوم في مسألة «وجود الله» كل هذا الجهد؟! ربما يقضي هذا التعقيد على حلوة البساطة الدينية، المفترض أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد بحسب القرآن، وإن كان هذا صحيحًا فلا بد أن نكون في غنى عن حشد كل هذه المقولات والآراء لإثبات أنه موجود فضلًا عن الانبعاث إليه، أعتقد في جواب هذا الإشكال أن الله هو من يحب أن يعرفه الناس عبر آله المفضلة «العقل»، ولكن ثمة جواب آخر سليم أيضًا وهو أن المسألة ليست معقدة في الواقع، فدلائل الله أوضح من تخفى على الذكي والغبى معًا، من أجل أن تحس بوجوده يكفيك أن تفتح عينيك، في اللحظة التي تقرر أن تفتح فيها عينيك وتضعها أمام جمال العالم ونظامه البديع. ستشعر وكأن كل شيء تراه هو كلمة لله يقول فيها: أنا هنا..

يلخص «ويليام بيلي»⁽⁷²⁾ حجة التصميم الذكي بكلمات مختصرة ورائعة: (لنفرض أنني تعثرُ بقدمي على حصة صغيرة حال عبوري لمنطقة برية نائية، وعندما سئلت عن سبب وجود هذه الحصة في هذا الموضع تحديدًا، أجبني بأن هذه الحصة – على حد علمي – قد تكون موجودة هنا منذ الأزل. ليس من السهل تبيين سبب هذا الجواب. أما لو افترضنا أنني وجدت ساعة مُلقاة على الأرض، فلن أجب بمثل الإجابة السابقة فيما لو سئلت نفس السؤال. لن أقول إنها كانت في هذا المكان منذ الأزل، ما هو السبب في ذلك؟ لم كان الجواب معقولاً في الحالة الأولى دون الثانية؟ السبب في ذلك منحصر في أننا عندما نفحص الساعة بدقة فسنجد أنها تتركب من أجزاء مصممة لأجل تحقيق غاية محددة)⁽⁷³⁾

على إثر بيلي، نريد أن ننظر في الوجود. لنرى أنه يشابه حصة الصحراء أم الساعة الملقاة على الأرض، سنقرر الآن فتح أعيننا، وهو أمر سهل، ولكن علينا أن نفتح أذاننا كذلك لتكون جاهزة لسماع صوت الله المنعكس من جمال الأشياء، وربما يفتح بعضنا عينيه لكنه لا يسمع الصوت، ليس لأن الله صامت، بل لأن أذنيه قد امتلئت بالصخب المناقض لصوت الله – الشر والأناثية والتمحور حول النفع بدلا من الصلاح والخير – والذي يجعل صدى كلماته خافتة.

المثير للدهشة أن مديبات «التصميم الذكي» لا تقتصر دلالتها على وجود إله أو خالق للكون، وإنما تتعدى ذلك لتكشف جانبًا من الهوية الشخصية لله، إذا ذهب إلى متحف اللوفر بباريس وتوقفت للحظات من أجل معاينة لوحة «الموناليزا»⁽⁷⁴⁾، فلن تكتشف عندها فقط أنه ثمة شخص ما قام برسم أو نقش هذه اللوحة، وإنما ستحضر عندك مفاهيم من قبيل أنه يتسم بكونه رسامًا ماهرًا، وأن له أثرًا كبيرًا في التاريخ الفني، وأن له نظرة خاصة تجاه المرأة وإحساسًا مرهقًا بجمالها، ولو وقعت بيدك ملحمة «شاهنامة»⁽⁷⁵⁾ في قصاصات من دون أن يكتب عليها العنوان أو اسم المؤلف، فستكتشف بقدرتك العقلية البديهة ليس فقط أن أحدًا كتب هذه الأوراق، بل أنه شاعر متفرد، وأنه فارسي، وأنه ضمن هذه الملحمة بمفاصل الحضارة التي ينتمي إليها. ما نريده الآن في غابة البساطة، وهو أن ننظر إلى العالم بنفس الطريقة التي ننظر بها إلى لوحة الموناليزا أو ملحمة شاهنامة.

المادة والمادة المضادة

سنحاول أن نرى العالم بنظارة العلم الحديث، وهو أفضل ما نستطيع فعله في هذا الصدد، لأننا سنكون أمام خلاصة جهد الإنسان المكثور في التعرف على الطبيعة، لو أننا امتلكننا آلة السفر عبر الزمن، وقررنا الذهاب في رحلة إلى لحظات الكون الأولى، بالتحديد إلى الجزء 1/ ترليون من الثانية الأولى في عمر الكون، المدهش أننا في تلك اللحظة الضاربة في القدم، والتي نراقبها من موقعنا العلمي الحالي، سنجد أن كل منظومة الوجود كانت مهددة بالوادر قبل أن تكتمل فرحة ولادتها ونموها كما هي الآن، كل الأشياء كان يمكن أن تكون لا شيء، لولا حصول مسارات أو أحداث تفصيلية متناهية في الدقة. كأنها تحدثنا عن اللمسات الإبداعية الأخيرة للخلاق.

سنجد أمامنا في المشهد ذلك الصراع المحتدم بين المادة والمادة المضادة. لا بد أنك قد عرفت أن المادة تتبني على جسيمات أساسية «الكترن»، «بروتون +»، «نيوترون +» – «متعادل» –، وقد تكون المادة المضادة جديدة عليك، فهي مواد خاصة لها خصائص ذرية معاكسة للمادة العادية «الكترن +» (بوزيتون)، «بروتون -»، «نيوترون عكسي +». يمكن أن تشكل هذه المادة المضادة عناصر كيميائية كالمادة العادية تمامًا، فيمكن أن يوجد «هيدروجين مضاد» يختلف عن الهيدروجين العادي في تناقض شحنة بروتوناته وإلكتروناته. الحقيقة أن هذا ليس تخيلًا أو افتراضًا، بل هو ما كان عليه حال الكون في مرحلة «التخليق الباريوني» كما يسميها الفيزيائيون، الشيء الأكثر إدهاشًا، هو أن النتيجة الطبيعية لالتقاء أي مادة عادية مع نظيرتها المضادة يولد علميًا نتيجة حتمية واحدة، وهي فناء كلا المادتين فناءً كاملاً، وتحولهما إلى أشعة جاما شديدة الكثافة.

الظروف التي نعرفها عن نشأة الكون كان يمكن أو يُتوقع من خلالها أن تنتج مقدارًا متساويًا من المادة والمادة المضادة، ولهذا نتيجة خطيرة، وهي استحالة أن يوجد شيء من الفناء. لأن المواد ستبقى تصطدم بالمواد المضادة محوِّلةً أي وجود إلى عدم، كل هذا في الجزء الأول/ ترليون جزء من الثانية الأولى لعمر العالم.

الخبر السعيد الذي وجدته الفيزياء أخيرًا، والذي يعزى إليه عدم إجهاط العالم على يد المادة المضادة، هو ما يُعرف بـ «عدم التناظر الباريوني»، ينص هذا الخبر أن سر صمود الكون في تلك المرحلة الطفولية، هو تفوق المادة العادية على المادة المضادة بمقدار جسيم واحد عادي من المليار في قبال كل مليار جسيم مضاد! 1/مليار جسيم، في زمن 1/ ترليون من ثانية الوجود الأولى، كان ذلك هو إنعاش الكون بالحياة.

هكذا يصف «نيل ديجراس تايسون»⁽⁷⁶⁾ المشهد: (خلال فترة الكواركات – اللبتونات في أول جزء على الترليون من عمر الكون، تمنع الكون بكثافة كافية جعلت متوسط المسافة الفاصلة بين الكواركات الحرة مساويًا لمقدار المسافة بين الكواركات المرتبطة... وإن مزيجًا من الملاحظة والفكر النظري يشير إلى أن حدثًا ما وقع بعد بداية الكون بفترة بسيطة، ربما أثناء إحدى عمليات الانفصال بين أنواع القوى المختلفة منح الكون قدرًا ملحوظًا من عدم التناظر، زادت بموجبه جسيمات المادة عن جسيمات المادة المضادة بمقدار جسيم واحد في المليار، وهو الفارق الذي سمح بوجودنا اليوم لم يكن بالإمكان تقريبًا ملاحظة هذا الفارق الطفيف في تعداد الجسيمات وسط عمليات تكون الكواركات والكواركات المضادة والإلكترونات والإلكترونات المضادة المعروفة بالبوزيترونات)، والنيوترينوات والنيوترينوات المضادة، وفنائها وتكونها من جديد وإبان هذه الفترة سحقت فرص عديدة أمام الجسيم الزائد. تلك الزيادة الطفيفة للمادة على المادة المضادة – كي يجد جسيمات أخرى يفنى معها، وهو ما حدث بالفعل مع جميع الجسيمات الأخرى. لكن

ليس لوقت طويل، فمع استمرار الكون في التمدد والبرودة انخفضت درجة حرارته بسرعة لما دون الترليون درجة كلفينية، مر جزء على المليون من الثانية الآن على بداية الكون)⁽⁷⁷⁾

يعود الفضل في كشف شفرة الاتقان الكونيّ هذه للعالم الروسي ساخاروف⁽⁷⁸⁾، فبحسب «بيتر كولز»: (حيرت مشكلة توليد عدم التناظر – مشكلة التخلّق الباروني – العلماء العاملين على نظرية الانفجار العظيم لوقت ليس بالقليل، كان الفيزيائي الروسي أندريه ساخاروف أول من حدد الظروف التي في ظلها يمكن أن يكون هناك بالفعل انعدام تناظر باروني صافي، وأول من بين أن العدد الباروني لا يلزم في واقع الأمر، أن يكون كمية محفوظة. وقد تمكن من أن يُنتج تفسيرًا وُفِّقَهُ تكون قوانين الفيزياء بالفعل متناظرة بارونيا، وفي الأوقات المبكرة من عمر الكون لم يكن للكون رقم بارون صافي، لكن مع برودته ظهر تفضيل تدريجي للبارونات على البارونات المضادة. كانت أعماله سابقة لعصرها؛ لأنها أجريت قبل بناء أي نظرية موحدة لفيزياء الجسيمات بوقت طويل. وقد تمكن من اقتراح آلية يمكنها إنتاج موقف في الكون المبكر يكون فيه مقابل كل مليار بارون مضاد مليار واحد بارون. وحين تصادم البارونات والبارونات المضادة، فإنها تفتى في لفحة من الإشعاع الكهرومغناطيسي. وفي نموذج سخاروف، من شأن أغلب البارونات أن تقابل بارونات مضادة، وأن تفتى بهذه الصورة. وفي النهاية سيتبقى لدينا كون يحتوي الاف الملايين من الفوتونات مقابل كل بارون ناج. وهذا هو واقع الحال في الكون بالفعل)⁽⁷⁹⁾

من الواضح أنّ في هذه اللمحة إشارةً تصرف الذهن إلى وجود كائن مدبّر فوق الطبيعة، فإنّ درجة الدقة التي تمثّلت في الظروف الأولى لنشأة العالم مع ما فيها من احتمالات خطيرة لم يكن لولاها ليستمر الكون في البقاء لا يمكن أن تُفسّر إلا بحضور قسريّ لتدخل الإله، لنستمر الآن في المسير ونحن ننظر في الأرجاء ونراقب كيف تتكلم الأشياء.

علاقات رياضية داخل القوى الرباعية!

لقد مرّ بنا الحديث عن الطريقة التي اكتشف بها «إدوين هابل» فكرة تمدد الكون، والتي أدّت إلى الوقوف على خطأ «آينشتاين» في افتراضه الثابت الكونيّ ضمن معادلاته النسبيّة، ولكننا مع ذلك نعلم أنّ جميع النشاط التي تُظهره المادّة إنّما هو ترجمة لعلاقات بين قوى رباعيّة تحكم الطبيعة: القوة الكهرومغناطيسية، القوة الجاذبيّة، القوة النووية القوية، القوة النووية الضعيفة.

ومن هنا اشتغل العلماء ببحث العلاقة بين هذه القوى الأربع من جهة وأثر كل واحدة منها على سلوك المادّة، والعلاقة بين قوّة الجاذبية بالتحديد وبين ما كَشَفْتَهُ أبحاث هابل عن تمدد الكون، فإنّ الجاذبيّة لو كان لها سيطرة محكمة على الأشياء لما أمكن للكون أن يتمدد من رأس ولأخذ بالتقلص والانكماش، ولو كان تمدد الكون مهولًا بما يكفي لابتلاع الجاذبيّة لتلاشى الكون تبعًا لذلك وما أمكن للنجوم التي تتمركز المجرات مثلًا أن تجتذب حولها مجموعة الكواكب، وكلا الافتراضين يستحيل معه تكوّن الكون بصورته الحاليّة.

كان هذا ما نَبّه العلماء إلى وجود علاقة رياضيّة تتناسب بها قوّة الجاذبيّة مع معدل التمدد «المضاد للجاذبيّة»، به يستطيع الكون أن يمضي قُدما في التمدد، وأن يحافظ على قواعد الجذب الضروريّة فيه، وهو ما أعاد للذهن ما اقترحه آينشتاين من إدخال «الثابت الكوني» في معادلات النسبيّة، فلربما يتحوّل خطأ آينشتاين إلى انتصار علميّ فيما بعد، بتقريب أنّ الثابت لن يكون مفسّرًا لسكون الكون كما أراده آينشتاين وإنّما مفسّرًا للعلاقة بين الجاذبية والتمدد «معدل التمدد»، وهو ما كشف بعد ذلك عن ثوابت رياضيّة مهولة في الدقة والتفرد تستغزّ العقل قهْرًا للانشداد إلى فكرة التصميم الذكي.

فمن جهة يتحدث «ستيفن هوكينج» معدل التمدد الكوني واصفًا إياه بالقيمة الحرجة: (بدأ الكون وله تقريبا نفس معدل التمدد الحرج الذي يفصل الأنماط التي تنقلص ثانية عن تلك التي توصل التمدد للأبد، بحيث أنه حتى في وقتنا هذا، بعد مضي عشرة آلاف مليون سنة، ما زال يتمدد بمعدل التمدد الحرج تقريبًا، ولو كان معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير أصغر حتى بجزء واحد من مائة ألف مليون مليون، لكان الكون قد تقلص ثانية قبل أن يصل قط إلى حجمه الحالي)⁽⁸⁰⁾

يعبّر هوكينج هنا عن دهشته بثبات معدل التمدد، وجربانه على نفس الأسس الرابضة على مدى عشرة آلاف مليون سنة، ولو لم تكن هذه القيمة ثابتة لفني الكون وما أمكنه أن يوجد، هذا بالنسبة لثبات معدل التمدد.

أمّا أصل وجود معدل التمدد من البدء بهذه القيمة، فهو يثير قدرًا أكبر من الدهشة غير الموصوفة، حاول عالم الفيزياء المعاصر «ألان غوث»⁽⁸¹⁾ أن يعبر عنها بالدقة العلميّة بقوله: (إنه لو تغيرت نسبة قوى التمدد والانكماش بمقدار جزئ واحد من 10^{-55} على زمن بلانك

«بعد 10^{-43} ثانية فقط من بداية الكون «لأدى ذلك إلى تمدد سريع جدًا للكون لا يسمح بتكوّن المجرات أو تمدد بطيء جدا يعقبه انهيار سريع)⁽⁸²⁾

هل هذا يُشبهه حجرة مرمية في الصحراء يُمكن أن تكون الرياح مسؤولة عن إلقائها، أم ساعة يد على الأرض تكشف عن عبور كائن عاقل؟!

يقترح عالم الفيزياء الروسي «هيو روس»⁽⁸³⁾ مثالًا لتصوير الدقة التي يحتاجها الكون حتّى يظهر بصورته التي وجدنا فيها أنفسنا: (غطّ قارة أمريكا بعملات معدنيّة في عمود يصل إلى القمر «380 ألف كيلومتر»، وكرر الشيء نفسه مليار مرة – أيّ اصنع مليار عمود مغطى بالعملات المعدنية بمسافة 380 ألف كيلومتر، ادهن عملة واحدة باللون الأحمر وضعها في أي واحد من المليار عمود ثم اعصب عينيّ صديق لك واطلب منه أن يستخرجها، احتمال نجاحه في هذه المهمة يساوي 10^{-40})⁽⁸⁴⁾

وهذا الرقم 10^{-40} أصغر بكثير من الأرقام والثوابت الرابضة التي كان يتوقف تكوّن كوننا ونشوئه على ثباتها في العلاقات الرياضية، كما أننا لا نتحدث عن ثابت واحد بل ثوابت متعددة تصب في الهدف نفسه!

ولقد تصدى عالم الفيزياء الشهير «مارتن ريس» في كتابه «سته أرقام فقط» لمجهود علمي كبير في عرض أهم هذه الثوابت في العلاقات الرياضية دقة وتأثيرًا في المسرح الكوني، والتي لم يكن بدونها يمكن لشيء أن يرى النور، وقال في آخره: (عالمنا اليومي، محكوم بالقوى ما دون الذرية بشكل واضح، ويعود سبب بقائه لمعدل تمدد الكون المضبوط بدقة، وعملية تكوين المجرات، وتكوين الكربون، والأكسجين في النجوم القديمة.. إلخ.

وضعت القواعد عددا قليلا من القوانين الفيزيائية، حيث كان ظهورنا بعد الانفجار الكبير حساسًا لـ «سته أرقام» فلكية، لو لم تكن هذه الأرقام تامة الضبط والدقة، لكان التكتيف التدريجي لطبقة عن طبقة من التعقيد قد آل إلى الإخماد⁽⁸⁵⁾

وُعد هذا الكتاب متفرد في بابه، فيُصح بمراجعته لمن أحب التوسع في دقائق الثوابت الرياضية التي أدت لظهور الكون، ودون مبالغة فإن فيه مجموعة من الشواهد الواضحة لصالح التصميم الذكي، فهو يتحدث عن أرقام بالغة الدقة والتأثير تصل إلى 10^{122} وهو رقم مهول لا يمكن تخيله فضلا عن كتابته، ولولا هذه النسبة المعبر عنها بهذه العلاقة الرياضية لما أمكن أن تظهر الأشياء وتتكون أصلًا، وقد علق الفقيه المفكر «السيد منير الخياز» على بعض معطياته تعليقًا لطيفًا: (إن الساعة مقسمة إلى 60 جزءًا «الدقائق» يدور عليها عقرب الساعة ليحرك بمقدار ساعة واحدة كاملة، ولكن لتخيل أن ساعةً أخرى مقسمة إلى 10^{122} - تمثل النسب الاحتمالية للعلاقات الرياضية التي يُمكن أن يُظهرها الكون -، ومع كثرة أجزاء هذه الساعة إلا أن يجب أن تُضبط العقارب على جزء محدد ومعيّن له خصائص فريدة ليسمح بتكوّن الكون المنتظم، وقد وقع هذا فعلاً، وهذا ما يدعو للدهشة والحيرة، ولتصوّر مدى ضخامة العدد 10^{122} ، تذكر أن عدد الثواني التي عاشها الكون منذ حصول الانفجار العظيم هو 10^{18} فقط، وعدد البروتونات في كل الكون المرئي هو 10^{80} فقط⁽⁸⁶⁾!

مشروع الجينوم البشري

يقول «فرانسيس كولينز»: (في يوم 26 يونيو من عام 2000. وحدث نفسي واقفًا بجانب رئيس الولايات المتحدة - كلينتون - في العرة الشرقية من البيت الأبيض، معلنًا أنه تم التوصل إلى أول نسخة من كتيب تعليمات الإنسان، وأنه تم الكشف عن لغة الإله)⁽⁸⁷⁾

لم يكن كولينز يصف حلمًا أتاه في الليل، كان يصف ما حدث فعلاً بعد أن تولّى إدارة ما يوصف بأنه أضخم مشروع علمي بيولوجي في تاريخ البشرية منذ عام 1992 خلقًا لسلفه جيم واتسون. أدار كولينز هذا المشروع الذي يهدف إلى «تحديد تسلسل الحمض النووي لكامل الجينوم البشري، والذي تشير التقديرات إلى أنّ طوله يصل إلى 3 مليارات زوج من القواعد»، والذي سيؤدي إلى معرفتنا بأسباب كثير من الأمراض الفاتلة والمدمرة للبشر وبالتالي تمكنا من القضاء عليها أو الحد من أثارها.

لقد بدا فرانسيس كولينز أمام المجتمع العلمي جديرًا بقيادة هذا المشروع، وسبب ذلك بالفعل هو محاولته الناجحة فُيبل عام 1945 في الكشف عن الجين المتسبب في مرض «التليف الكيسي» الذي يعد أحد أكثر الأمراض المميتة في دول شمال أوروبا، حاول كولنز جمع معلومات تفصيلية عن المرض موضوع البحث، ليستطيع من خلال المعطيات العلمية المتوافرة على الأقل أن يحدد الجهة التي يُحتمل فيها تواجد الجين المتسبب في المرض، الذي لاحظ كولنز أنه عادةً ما يصيب الأطفال، الذين لا تزيد أوزانهم بمرور الوقت، وأنّ أمهات هؤلاء الأطفال كانوا يقلن دائما أنهم يشعرون عند تقبيل أطفالهن بمذاق مالح - وهو ما كشف عن وجود تركيز عالي من الكلوريد في عرق هؤلاء الأطفال - وأنهم كانوا نادراً ما يقفون على قيد الحياة إلى سن العاشرة في الخمسينات من القرن المنصرم. لكن في السبعينات لوحظ أنّ المصابين بهذا المرض تمكنوا من الوصول لمراحل عمرية أكبر كمرحلة الجامعة والزواج والعمل.

أخذ كولينز يجمع هذه المعلومات العامة حول التليف الكيسي ويستفيد من المعطيات العلمية المتوافرة لتحديد السبب الجيني المسؤول عنه، فكل ما كان يعرفه أنّ واحدًا من بين 3 ملايين حرف محتمل من شفرة الحمض النووي قد تحرك من مكانه، وهو يشبه صعوبة البحث عن الجين بالبحث عن مصباح تالف في سرداب أحد البيوت في الولايات المتحدة الأمريكية.

من خلال آلية بحثية أسماها «قفز الكروموسوم» تمكن في ليلة ممطرة من شهر مايو عام 1989 من معرفة الخلل في الأسس الجينية الذي يسبب في هذا النوع من المرض: (تبين بشكل لا لبس فيه أن حذف ثلاثة حروف فقط من شفرة الحمض النووي في الجزء الخاص بتشفير البروتين في الجين الذي لم يكن معروفًا من قبل هو سبب التليف الكيسي في معظم المرضى. بعد فترة وجيزة، كنا قادرين على إظهار أن هذه الطفرة بالإضافة إلى أخطاء برمجية في الجين نفسه، أصبحت تسمى الآن CFTR، هي المسؤولة عن جميع حالات هذا المرض)⁽⁸⁸⁾

وقد عُقد على إثر ذلك مؤتمر لآلاف من العلماء والباحثين للاحتفال بهذا الأفق الجديد، الذي أثبت عمليًا أنه يمكننا باستخدام فك الشفرات الجينية أن نتعرف على سبب الأمراض ونصبح أقرب للقضاء عليها.

أصبح فيما بعد الشخصية المؤهلة لهذا الموقع المرموق علميا، أمّا على مستوى رؤيته الكونية، فإنه يصف نفسه: (كابن لمفكر حر كانت نشأتي تقليدية تماما في موقفها من أن الإيمان ليس أمرا مهما... لم يكن الإيمان جزءًا من طفولتي، لقد كانت لدي فكرة ضبابية عن الإله)⁽⁸⁹⁾ وقد استمرت به هذه الحالة غير الإيمانية حتى بعد دخوله للجامعة والتحاقه بالمجتمع العلمي: (بعد مرور بضعة أشهر من حياتي الجامعية بدأت أفتنع أنه على الرغم من أنّ المعتقدات الدينية كانت سببا في تكوين تراث فني وثقافي إلا أنّ هذه المعتقدات لا تستند إلى الحقيقة... هناك نوعين من اللا أدريين، فمنهم من وصل إلى هذا الموقف بعد تحليل معمق للأدلة، في حين أن البعض الآخر وجد أنه الموقف المريح الذي يسمح له بتجنب التفكير في الحجج التي يجدها مزعجة في الجهتين. أنا بالتأكيد من النوع الثاني. قولي بأنني «لا أدري» كان أقرب إلى القول بأنني «لا أريد أن أدري»⁽⁹⁰⁾

وبعد عمله على إنجاز بحث الدكتوراه في الفيزياء الكيميائية بجامعة ييل أصبح يقول عن نفسه: (تدريجيًا بدأت أفتنع أن كل شيء في الكون يمكن تفسيره على أسس المعادلات ومبادئ الفيزياء... بدأت أتحوّل من اللا أدرية إلى الإلحاد، ووجدت راحة كبيرة في تحدي

المعتقدات الدينية لأي شخص يذكر هذه المعتقدات في حضوره، وكنت أنتقص من وجهات النظر هذه باعتبارها خرافات باطلة⁽⁹¹⁾

فما الذي رآه هذا الملحد الشرس من دلائل النظم والتصميم الذكي، خلال عمله العلمي في إدارة مشروع الجينوم البشري، حتى وقف في خطابه بالبيت الأبيض عام 2000، وهو يعبر عن إيمانه بعبارات عميقة: (إنه يوم سعيد للعالم، ومدعاة للتواضع من قبلي، فقد أمسكتنا باللمحة الأولى من كتابنا، الذي كان في السابق معروفًا من قبل الله فحسب).⁽⁹²⁾ لتتابع معًا بعض هذه المفاجآت، والتي أدت إلى تحوله الجذري..

تحت عنوان «مفاجآت من من القراءة الأولى للجينوم»، يصف لنا كولينز بعض ملامح المشهد، تتمثل المفاجأة الأولى في النظر إلى حجم الجينوم البشري المُستخدم في تشفير البروتين – من أصل كامل الجينوم البشري المتكوّن من 3.1 بليون حرف موزعة على 24 كروموسوم – ومقارنته بحجم الجينوم المسؤول عن تشفير بروتينات مخلوقات حيّة في غابة البساطة كالذباب والديدان الصغيرة، – مع ملاحظة أنّ البروتينات مسؤولة بشكل مباشر عن عمليات الأيض التي تُعطي بيئاتًا مُفترضةً للقدرة الحيويّة – إلا أننا نجد أنّ الإنسان الذي يحوي جسمه على 30 – 37 ترليون خلية يتساوى في نسبة الجينوم المشفر للبروتين إلى سائر السلاسل الجينية مع الذباب والديدان التي تحوي 959 خلية فقط، وهذه النسبة متناهية في الصغر تعادل 1.5%.

ومثل هذا التقارب في نسبة تشفير البروتينات تضعضنا في حيرة شديدة، إذ من الواضح أنّ النشاطات الحيوية للإنسان هائلة ومعقدة على نحو لا يمكن قياسها إلى نشاطات بدائية كتنشيطات الذباب! لعلّ هذا يفتح الباب فعلاً أمام فكرة أنّ تمييز الإنسان في الحيز الوجودي غير راجع إلى أسباب مادية فقط، وينبغي البحث عن جذور فلسفيّة لهذا الموقع الإنساني.⁽⁹³⁾

أمّا المفاجأة الأخرى، فهي أنّ جميع بني البشر تتطابق أحماضهم الجينيّة مع بعضهم البعض بنسبة تصل إلى 99%، ويختلف الشأن في هذا المورد بالذات مع جميع المخلوقات الحيّة الأخرى، حيث أنّ التفاوت بينها في مستوى الحمض النووي يصل إلى 15 ضعفًا! وفي هذا إحالة دقيقة للذهن أنّ هناك إرادة خاصّة في تكوين الإنسان بهذه المقوّمات على وجه التحديد.⁽⁹⁴⁾⁽⁹⁵⁾

الاعتراض على فكرة التصميم

إلى هنا لا بد أن نكون قد أوفينا بعرض النماذج – لها كثير من النظائر وإنما اقتصرنا عليها لأنّ التوسع في بابها يخرج عن المقصد ويؤدي للإطناب الزائد – التي يمكن أن تكون مؤيدات أو مؤشرات علميّة لصالح «التصميم الذكي» المساوق للاعتقاد بالإله، ولأننا أخذنا على أنفسنا أن نجري في هذا البحث مجرى الإنصاف وعدم التحيز المصنّف بالموضوعيّة، لا بد أن نتوقف كذلك مع الاعتراضات الموجهة ضد فكرة التصميم.

المبدأ الإنساني

يتفق علماء الطبيعة أنّ كوننا يتسم بصفات خاصّة ودقيقة لم يكن وجودنا فيه ممكنًا بدونها، يُطلق على هذا المفهوم «المبدأ الإنساني»، ولكنّ ملائمة هذه السمات التي يظهر بها كوننا لوجود الحياة وتطوّرها هل يكشف عن إرادة خالقة بالضرورة؟!

جادل بعض العلماء في ذلك، باستخدام ما يُعرف بمصطلح «تأثير الملاحظة»، فنحن لو لم نكن موجودين لما تمكّننا من ملاحظة النظام في الكون، وهذا يعني أنّ وجودنا هو السبب في تشكل فكرة النظام لا العكس، إذ لا معنى له دوننا – كما في تصوّرهم –، ويُضاف إلى ذلك أنّنا لا نعرف حجم الكون الكليّ، أو نرجح بالفعل وجود أكوان كبيرة موازية تفوق كوننا حجمًا وفاعليّةً، فكيف يمكن أن يصح وصفنا للكون بالنظام الدقيق ونحن لم نلاحظ منه سوى مقدار ضئيل؟!

ولتكون فكرة تأثير الملاحظة أوضح لا بد أن نستعين بالمثال الشهير لـ «آرثر إندجتون»⁽⁹⁶⁾: (لنفترض أنّك تصطاد السمك في البحيرة باستخدام شبكة صيد كبيرة، بحيث لا تسمح هذه الشبكة إلا باصطياد الأسماك الكبيرة التي يبلغ طولها 10 بوصات فأكثر، ثمّ تلاحظ أنّ جميع الأسماك التي قُمت باصطيادها يفوق طولها 10 بوصات، ثمّ تفترض افتراضًا متعلقًا بطول الأسماك في البحيرة:

الافتراض الأول (أ): جميع الأسماك في البحيرة يفوق طول كل فرد منها 10 بوصات.

الافتراض الثاني (ب): نصف الأسماك الموجودة في البحيرة يفوق طول كل فرد منها 10 بوصات.

الآن احتماليّة صحة الملاحظة التي قمت بها [= جميع الأسماك التي اصطدتها يفوق طولها 10 بوصات] أعلى مع التسليم بصحة الفرضية (أ) دون (ب)، ولكنك ستكون مخطئًا لو اعتقدت أن هذه الحقيقة ترجح صحة الفرضية (أ) على حساب (ب)، أو أنّ هذه الحقيقة تعطيك سببًا مقنعًا للاعتقاد بصحة الفرضية (أ).⁽⁹⁷⁾

وبعبارة أخرى إننا في هذا المورد لا نستطيع أن نبني على ملاحظتنا حقيقة كلية، لأنّ تأثير الملاحظة – محدودة ملاحظتنا وكونها محكومة بعوامل تقلص حجمها إزاء الواقع – يمنعنا من الاعتماد المُطلق عليها، ولكن هل الأمر كذلك تمامًا في طواهر الضبط الدقيق في العالم؟!

في الواقع، تبنتي هذه الحجة على جذور غير محققة، لأنّ مؤداهنا أنه لا يمكن البناء على أي فكرة مالم تخضع لمقارنة مع جميع الوقائع الكلية، ومعنى ذلك انهيار أيّ حصول معرفي للإنسان، حتى إذا رأيت ساعة يد بشريّة – حتى وإن وُضع عليها لوقو تجاري – لا يمكن أن تجزم أنها مصنوعة لهذه الغاية فلربما هناك أنواع من الحجر في المريخ تشبه الساعات البشرية.

ونحن لا نمنع من وجود «تأثير الملاحظ» مطلقًا، لكننا نمنع من انطباقه في جميع الموارد، فكيف تُثبت أنّ برهان التصميم الذكي خارج عمّا يُوّطر بهذا التأثير؟

أجد أنّ فكرة الفيلسوف السيد محمد باقر الصدر⁽⁹⁸⁾ رائعة هنا، وهي أنه يبني البرهان على أساس «حساب الاحتمال الرياضي»، فالطواهر التي تقع تحت تأثير الملاحظة عادةً ما تكون مفردة وساذجة، ولها مرجعيّة واحدة تسببت في تحجيم رصدنا للواقع، ولكن

كلما تعقدت الظواهر التي نلاحظها من جهة، وتعددت بياناتها التي تُشير إلى نفس الاتجاه في النتائج، بل وتباينت الأسس والزوايا التي تدعم نفس المسار، فإن تأثير الملاحظة يقترب من الفناء.

(أنت في حياتك الاعتيادية، حين تتسلم رسالة بالبريد، تعرف بمجرد قراءتها أنها من أخيك، لا من شخص آخر ممن يرغب في مواصلتك ومراسلتك، لأنك بذلك تُمارس استدلالاً استقرائياً قائماً على حساب الاحتمال، ومهما كانت هذه القضية (وهي أنّ الرسالة من قبل أخيك) واضحة في نظرك، فهي في الحقيقة قضية استنتجتها بدليل استقرائي وفقاً للمنهج المتقدم. وهذا ما سيُبين لنا من تطبيق الخطوات الخمس التالية للمنهج الاستقرائي:

الخطوة الأولى: تواجه فيها ظواهر عديدة، من قبيل أنّ الرسالة تحمل اسماً يتطابق مع اسم أخيك تماماً، وقد كُتبت فيها الحروف جميعاً، بنفس الطريقة التي يكتب بها أخوك، وبنفس أسلوب التعبير، والرسالة تتضمن معلومات يعرفها أخوك عادة، وتتوافق مع حاجاته وأرائه.

هذه إبدأً مجموعة الظواهر والمعطيات...⁽⁹⁹⁾

والفارق هنا أننا لسنا أمام ظاهرة واحدة ساذجة، وإنما أمام اجتماع لمزيد من الظواهر في وضع فريد من التعقيد يتصل بعدد من الجهات التي تسير إلى نفس المؤدى، وبعبارة توضيحية أخرى، لو ذهب إلى فندق في مدينة دبي لمدة ليلة واحدة، وتفاجأت بعدد من الظواهر العجيبة في الغرفة الخاصة بك، فما إن وصلت حتى وجدت التلفاز مثبت على قناتك المفضلة، وقد وُضعت إلى جانب السرير نفس أنواع الزهور التي تحب اقتناءها دائماً في بلدك، ووضع على الطاولة النوع الذي يعجبك من العطور، وإلى جانب الوسادة الكتاب الذي تعوّدت أن تقرأه قبيل النوم.. فهل ستفترض أنّ هذه الظواهر يمكن أن تجتمع صدفة؟ أم أنّ أحداً لابد أنه مطلع على تفاصيل حياتك كان قد هباً لك المكان؟! من الواضح أنّ درجة التعقيد والتفصيل إضافة تعدد المعطيات وتنوعها، لا تدع مجالاً للشك في التفسير الثاني.

الأوضح من ذلك أنّ دلائل التّظم في الكون أشد تعقيداً، وأكثر تنوعاً، كما أنها لها أسس وجهات مختلفة (فيزيائية. كيميائية. بيولوجية... الخ) يتمتع معها افتراض تشكّلها صدفة.

ولهذا وصف الفيلسوف «جون ليسلي»⁽¹⁰⁰⁾ من يحتج بـ «تأثير الملاحظة» لتحييد «المبدأ الإنساني» عن التفسير الإلهي: (يبدو كمن يقول إنك إن واجهت فرقة عسكرية تصوّب عليك خمسين بندقية، يجب أن لا تندش عندما تجد نفسك حياً بعد إطلاقهم للنيران، فمهما يكن من أمر، هذا هو الناتج الوحيد الذي يمكن أن نلاحظه، لأنك لو أصبت برصاصة واحدة لفقدت حياتك، ولكنك قد تشعر مع ذلك بأن الأمر يتطلب تفسيراً، فكيف أخطأ جميعهم إصابة الهدف؟! هل بناءً على تصميم مقصود؟، لأنه لا تناقض بين عدم اندهاشك من عدم إدراكك أنك متّ، واندهاشك من إدراكك أنك ما زلت حياً)⁽¹⁰¹⁾

فملاحظة طريقة حساب الاحتمالات الرياضيّة التي فعلها السيد الشهيد الصدر في برهان النظم والتصميم الذكي، مع طبيعة المعطيات التي يمكن استخدامها كإشارات ودلائل على ضبط الكون وتعقيده، يمكن القول أنها تمنع بشكل حاسم تطرق «تأثير الملاحظة» المضر بمنطقيّة الاستدلال إلى هذا البرهان.⁽¹⁰²⁾

الانتروبيا الأولية

في عام 1927 أحدث «هايزنبرج» تغييراً عميقاً ومفاجئاً في أصول فهمنا العلمي للكون، وذلك عبر المبدأ الشهير، المسمّى بـ «مبدأ اللابيقين»، ينص هذا المبدأ باختصار أننا لا نستطيع معرفة مكان الالكترون ومقدار سرعته بدقة في نفس الوقت، سبب ذلك أنّ القوانين والتجارب لا تُعطينا نتيجة حتمية عن مكان وسرعة الالكترون، وأننا دائماً في حالة شك بالنسبة لموقع الالكترون وكذلك بالنسبة لسرعته، وهذان الشكّان يتسمان بالتناسب العكسي، فحينما يقل نطاق شكنا في سرعة الالكترون يزيد نطاق الشكّ في مكانه، والعكس صحيح، أي عندما يزيد نطاق شكنا في سرعة الالكترون يقل نطاق الشكّ في مكانه أيضاً، لكنّ أيّاً من الشكّين لا يمكن أن ينتفي تماماً في حالٍ من الأحوال.

وبعبارة رياضية إنّ معامل الشكّ في مكان الالكترون مضروباً في معامل الشكّ في سرعته دائماً يعطي قيمة أكبر من الصفر.

أثار هذا سؤالاً خطيراً ذا أبعاد ومديات غير محدودة، وهو أنّ التذبذب واللاحتمية التي تظهرها لنا التجارب المجراة طبقاً للقوانين العلمية المسلمة هل هو راجع إلى خلل تراكميّ أو تفصيليّ في رصدنا لحالة المادة وجريان الالكترون فيها – أيّ راجع لقصورنا العلميّ – أم هو راجع إلى أنّ نفس سلوك المادة غير قائم على القانونية والحتمية وإنما على الاحتمالية؟!

لربما نتوقع أنّ الخيار الأوّل هو الأنسب، لكن علماء الفيزياء لهم رأي آخر، فقد أطيحوا بعد مزيد من التجارب أنّ بنى المادة الدقيقة لا تُظهر سلوكاً مطرداً دائماً، وبذلك تُسخت «فيزياء نيوتن» الكلاسيكية التي كانت تقوم على فكرة القانون ذي النتيجة الواحدة، وتطلّع للفيزياء الحديثة «ميكانيكا الكم» رجال آخرون من أمثال إدوين شرودنجر، تقوم أطروحتهم على أساس القانون ذي المسارات العديدة، يقول «ستيفن هوكينج»: (إن هذا الحد لا يعتمد على الطريقة التي تحاول بها المرء قياس موضع أو سرعة الجسم، ولا على نوع الجسم، فمبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج هو خاصية أساسية للعالم لا مفرّ منها، أدى هذا التناول إلى أن قام هايزنبرج وإدوين شرودنجر وبول ديراك في العشرينيات من هذا القرن بإعادة صياغة الميكانيكا في صيغة جديدة سميت ميكانيكا الكم، تتأسس على مبدأ عدم اليقين... وعموماً فإنّ ميكانيكا الكم لا تتنبأ بنتيجة وحيدة محددة لمشاهدة ما، وبدلاً من ذلك فإنها تتنبأ بعدد من النتائج الممكنة المختلفة وتخبرنا بمدى احتمال كل واحدة منها، بمعنى أنه إذا قام المرء بالقياس نفسه على عدد كبير من أسسقة متماثلة، كل منها بدأ منطلقاً بالطريقة نفسها، فسيجد المرء أن نتيجة القياس تكون (أ) في عدد معين من الحالات، و(ب) في عدد مختلف وهلم جرا)⁽¹⁰³⁾

واليوم أصبح العلماء يطلقون اسم «الانتروبيا» على حالة عدم الحتمية أو «العشوائية الاحتمالية» التي تُظهرها القوانين العلميّة، وقد أصبح مشخصاً لديهم أنّ كل نظام مغلق في الكون لابد أن يكون له معدّل من الانتروبيا وفقاً لميكانيكا الكم، وأنّ وظيفة العلم أصبحت

حصر الاحتمالات والمفاضلة بين درجاتها بدلا من كشف نتيجة واحدة أكيدة، ليس لقصورنا عن معرفة الطبيعة كما هي وإنما لأنّ الطبيعة كذلك بالفعل.

هذا الأمر الذي اعتبره الملحدون واللا أدريون شاهداً مضاداً لدحض ما أسميناه بالتصميم الذكي، بتقريب أنّ الكون بأكمله إنما تحرر في لحظة الانفجار الكبير من وضع نظام مغلق متناهٍ في الغموض والصغر والكثافة، وبهذا اللحظ فإنّ نشأة الكون لابد أن تكون محكومة بمبادئ ميكانيكا الكم التي تفترض «الانتروبيا»، وهو ما يجعلنا نقبل دون تكلف أن يكون تموضعنا الكوني ناتجا للعشوائية غير الهادفة، وما وجودنا الإنساني في نقطة خلال هذه العشوائية المُفرطة إلا فرصة حظ بتيمة بين وجودات فضائية مترامية تخلو من أي نبض للحياة.

كتب «فيكتور ستينجر»⁽¹⁰⁴⁾: (يجب أن نبدأ بوصفنا لبدية الانفجار الكبير، في ذلك الوقت، بخبرنا توقعنا من الأزمان اللاحقة أنّ الانتروبيا كانت قصوى، في هذه الحالة كان الاضطراب شاملا ولم يمكن وجود أي تركيب... باختصار، ووفقا لأفضل فهم كوني حالي لدينا فقد بدأ كوننا دون تركيب أو تنظيم، إن كان مصمما أو لا، لقد كان حالة من الفوضى، ونحن لهذا ملزمون باستنتاج أنّ التنظيم المعقد الذي نشاهده اليوم لا يمكن أن يكون نتيجة لأي تصميم مبدئي في بنى الكون عند لحظة الخلق المفترضة)⁽¹⁰⁵⁾

كثا قد أخذنا على أنفسنا في بداية هذا البحث أن لا نتعامل مع المعطيات معاملة الناقد علمياً، موكلين السجال العلميّ إلى أهله، ولكننا نعمل بحفنا الطبيعي في ملاحقة المآلات الفلسفية للمقولة العلمية، وطبقاً لهذا الوعد نتوقف عند هذا الإيراد فعلاً، فهل الانتروبيا المزعومة حرة؟! أي هل كان له من المساحة أن تتطوّر كيف نشاء في مسرح الكون؟ إنّ مقدار سعة وضيق الانتروبيا الأولية له بالغ التأثير في الطريقة التي نقيس بها مدى صلاحية هذا الشاهد في معارضة التصميم الدقيق.

هنا بالذات استذكر شاعريّة أبي نواس: قل لمن يدعي في العلم فلسفة *** حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء، الشاهد على ذلك أنّ شيئاً من التبع العلميّ المعمق يجعلنا موقنين أنّ استعمال ظاهرة «الانتروبيا» لصالح حجة التصميم أقرب من استعمالها كشاهد لضعفها، إذ أنّ العلماء يطبقون أنّ الكون لم يكن ليوجد لو كانت الانتروبيا مطلقة العنان فيه، والمفاجأة الأخرى أنّ معدل الانتروبيا المسموح به ليتمكن كوننا من الظهور هو الآخر أحد الثوابت الرياضية التي تُحيل الذهن إلى الإرادة الخلاقية.

كتب عالم الرياضيات روجر بنروز: (حاول أن تتخيل فضاء الطور للكون كله، كل نقطة في فضاء الطور هذا عبارة عن طريقة مختلفة كان يمكن أن تمثل بداية الكون، وعلينا أن نتخيل الخالق بمسك «دبوسا» يجب أن يوضع على نقطة ما في فضاء الطور، وكل موضع للدبوس في فضاء الطور ينتج كونا مختلفا، فالدقة المطلوبة لتحقيق هدف الخالق تعتمد على الانتروبيا التي تُخلق الكون على أساسها، ومن السهل «نسيباً» إنتاج كون ذي انتروبيا مرتفعة، طالما يتوافر للدبوس حجم كبير في فضاء الطور، ولكن إنتاج الكون في حالة من الانتروبيا المنخفضة، مما يؤدي إلى قانون ثانٍ للديناميكا الحرارية، يتطلب من الخالق أن يستهدف مقدارا صغيرا جدا من فضاء الطور، فما مدى صغر هذه المساحة التي تفضي إلى كون قريب النسبة من هذا الذي نعيش فيه... هدف الخالق كان دقيقا بمقدار جزء واحد من 10 مرفوعة لأس 10¹²³، أي 1 متبوعا بـ 10¹²³ صفر، رقم تستحيل كتابته بنظام الترقيم العشري المعتاد لأنك حتى لو تمكنت من وضع صفر على كل جسيم في الكون لن تجد عددا كافيا من الجسيمات يمكنك من أداء المهمة)

وبعبارة أخرى، إنّ مقدار الانتروبيا المتصوّر إمكانها في ظروف نشأة العالم، والتي يمكن أن تسمح بوجود الكون، لابد أن تكون محفوظة في حدّ متناهٍ في الصغر لتحقيق نتيجة كالتي نلاحظها اليوم، إنّ درجة هذا التناهي في الدقة كما يصرّح العلماء بأنفسهم تفوق حد الفهم والوعي البشري. ومن هنا لا يكون عصياً علينا أن نفهمها في إطار التصميم، بل ربما أمكن عدها من مؤيداته والشواهد على صحته.

تبقى مسألة وهي تفسير هذا المقدار – ولو الضئيل – من العشوائية، فيمكن أن يقال أن العشوائية ولو المحدودة تناقض وجود كائن كلي القدرة والعلم، ولكنّ هذه «العشوائية» التي يعثر بها العلماء عن الانتروبيا، لاتعدو كونها اسم غير فاحص من جميع الجهات، فالعشوائية هي عدم وجود أسس أو غائية مطلقاً، وليس لعلماء الطبيعة إلى نفي ذلك من سبيل، فالغائية في مثل هذا المورد لربما تستطيع فرضية التصميم الذكي القائم على وجود خالق مختار تفسيرها بفكرة الإرادة أو اليد الإلهية، فإنّ وجود الله كما يفترض معه وجود قاعدة سنئية ونظام كلي لمسار الكون يفترض معه وجود مساحة للتدخل الإلهي بطريقة تحقق أهدافاً مرحلية ولا تؤدي إلى انهيار برنامج الكون القانوني، كتب د. عمرو شريف: (لم تلغى الفيزياء الحديثة حتمية لاياس وحسب، بل فتحت بمفهوم الاحتمالية الباب على مصراعيه للتدخلات الإلهية، فالإله قادر على التدخل في أيّ منظومة ليرجح أحد الاحتمالات على ما سواها، وبذلك يتغير المخرج بشكل جذري)⁽¹⁰⁶⁾

إنّ غاية ما يمكن لعلماء الطبيعة أن يصلوا إليه هو نفي تفسير طبيعيّ لظاهرة الانتروبيا، أي أنّ العشوائية عندهم هي عدم وجود تفسير مادي، لكن فرضية التصميم الذكي لا يعوزها التفسير لأنها تؤوّل إلى القول بحضور أسس ميتافيزيقية «عبيية» مؤثرة في الوجود، وبهذا نعرف أنّ التصميم الذكي يمكن له في الواقع أن يفسّر النظم الدقيق في العالم كما يمكنه أن يفسّر ما يسمّى بالانتروبيا الأولية، خلافاً للإلحاد أو اللا أدرية التي تقف عاجزة عن تفسير الأمرين معاً.

مع هيوم في إشكالاته

نسب إلى «ديفيد هيوم» مقولات إشكالية تجاه برهان النظم أو حجة التصميم، أشهرها أنّه قائم على التشبيه الاعتيادي بين أمرين متغايرين، فنحن نعرف عن مصنوعات البشر – كالألات الحديثة – مثلاً، أنها لا تنتج إلا عن تصميم وإرادة، ولأجل اعتيادنا على هذه الفكرة نحكم على العالم أنه يحتاج لإرادة خالقة كذلك، في حين أنّ العالم يختلف بشكل جذري عن مصنوعات البشر، ولذلك لربما يكون لكل واحد منهما حكمه المختلف.

هذا ما تمثّله هيوم في كلماته التي تقصصتها الشخصية الوهميّة «فيلون» في كتابه «محاورات في الدين الطبيعي»: (أي تشابه كهذا بين بناء منزل وتكوين عالم؟ هل حدث لك أن رأيت في الطبيعة حالة تشبه أول ترتيب للعناصر؟ هل حدث أن صيغت العوالم تحت بصرك؟

وهل أتيج لك ان تلاحظ تقدم الظاهرة بأسره من أول تبد للنظام إلى تمامه النهائي؟ إذا كان قد تهيأ لك هذا فارو لنا تجربتك، وسق نظريتك⁽¹⁰⁷⁾

لقد أعجبت ريتشارد دوكنز هذه المفارقة الهيومية بين ما يصنعه البشر وبين العالم، ولذا أطلق في عام 1986 كتابه المسمي «صانع الساعات الأعمى»، معرّضاً في ذلك بمثال ولبيام بيلى الشهرير⁽¹⁰⁸⁾، ومدعياً من خلال هذا التقريب إمكان وجود الكون المنظم من دون أي إرادة خالقة.

لكنّ الذي فات على هيوم، هو أنّ المؤمنين لم يعتمدوا في حجة التصميم على التمثيل أصلاً، وغالباً ما كانت أمثلتهم ضرباً من تقريب المعنى وليس لجعلها مقدمة في الاستدلال، وشيء من التأمل يجعلنا ندرك أنّ حجة المؤمنين من خلال التصميم الذكي تنتسب في عمقها إلى فكرة السببية الفلسفية.

فكنا قد قدما أنّنا نعلم اليوم بحدوث الكون – أي أنّ له بداية مسبقة بعدم – وهذه البداية لم تكن عشوائية وإّما كانت مضبوطة بدقة، وإذا افترضنا أنّ هناك احتمالين لتفسير الكون أحدهما نشوءه عن سبب – خالق – والآخر نشوءه عن الصدفة، فكلما زادت درجة التعقيد في النظام كلما ارتفع الاحتمال الأول بشكل طبيعي، حتّى تتراكم الاحتمالات مولّدة في نفوسنا ما يسمّى باليقين الرياضي.⁽¹⁰⁹⁾

السببية كذلك لها نحو ارتباط بالغائية، فالأشياء التي تنتجها المصادفة لا تنتج أهداف نوعيّة، إضافة إلى أصل وجود النظم في العالم، تلك العلاقة الوطيدة والدقيقة بين النظم المتوافر وبين وجود حياة متطورة ومستدامة يزيد بشكل وافر من الاعتقاد المنطقي بالتصميم الذكي.

كتب الشيخ د. مرتضى فرح⁽¹¹⁰⁾: (إن دليل النظم غير قائم على أساس قياس التشبيه أصلاً، وإنما هو قائم على أساس الربط بين النظم من ناحية ووجود طرف له علم وقدره من ناحية أخرى، فالإنسان لا يمكنه أن يمنع ذهنه من الانتقال من النظم إلى الطرف العالم القادر. ويقدر ما يكون النظم دقيقاً ومثقناً ومُحكماً، يكون الانتقال الذهني أسرع، والإيمان بالربط بينهما أقوى وأعمق.

هذا الربط قد يفهم على أساس مبدأ السببية العام، الذي يقول «لكل حادثة سبباً». فكما أن لكل حادثة سبباً، كذلك الحوادث بمجموعها، والتوافقات بأسرها، لا بد أن يكون لها سبب فالتوافق في أي حادثة قد يكون صدفة، لكن مع تكرر التوافقات ينخفض احتمال الصدفة حتى نصل – وفق حساب الاحتمالات – إلى فناعة كاملة بأن وراء تلك التوافقات سبباً.⁽¹¹¹⁾

ما قبل داروين وما بعده!

يتلخص الفرق بين ما قبل داروين وما بعده بحسب «ستيفن جولد»⁽¹¹²⁾ بأننا: (قبل داروين كنا نعتقد أنّ إلهًا رحيمًا خلقنا)⁽¹¹³⁾

وفي الحقيقة أننا لا نعلم بشكل دقيق ما كان يجول في خاطر تشارلز داروين وهو يقضي رحلته الشهيرة على متن السفينة بيغل، تلك الرحلة التي استغرقت خمس سنوات بين 1831 – 1836، لكن مشاهدات داروين في تلك الرحلة العلميّة التي جابت عبر المياه مساحة واسعة من العالم كانت دون شكّ دخيلاً في الحدث المدوي عام 1859، وهو صدور كتاب «أصل الأنواع» الذي عبّر خارطة علم الأحياء وقبلها رأسًا على عقب.

لم يكن داروين ابناً للتعليم الأكاديمي وإنما هو خريج مدرسة الحياة، كما هو شأن العباقرة في الغالب، فقد كان طالبًا ملولًا، وقد أرسله والده إلى جامعة أدنبرة لدراسة الطب – كما يحب الآباء في أيامنا هذه –، لكنه فشل في التأقلم مع حياة الطبيب، وفضّل أن يدرس الفنون الأساسيّة في جامعة كامبريدج، وهناك رواية تقول أنّه كانت تراوده بين الفينة والأخرى فكرة أن يصبح رجل دين.⁽¹¹⁴⁾

بشكل أو بآخر لم يكن داروين يظن أنه سيصبح نابغة علميّة أو أنه سيغيّر شيئًا في التاريخ، لم يخطر بباله أنّه سيثير حفيظة المتشددين من رجالات الكنائس، حتّى يُضَمّن قانون «أركنساس»⁽¹¹⁵⁾ الصادر عام 1928 مادةً تحوي تعريفًا خاصًا به، إذ تنص على: (مَنع المُدرّس في أي مدرسة أو جامعة تلقى دعماً من الحكومة من أن يُدرّس نظريّةً أو عقيدةً مُفادها أن البشر صدعوا أو انحدورا من مرتبة سفلى من الحيوانات)، لتتخذ بعد ذلك القاضية «سكاليا» موقفًا مناصرًا له وداعماً الأكاديميين المتحررين الذين تنبّأوا عرض نظريّته لتلامذتهم، بقولها في قضية «Epperson vs Arkansas»: (لم يكن هناك تفسير آخر يجعل قانون أركنساس مُبرّرًا باعتبارها نابعة من سياسة الولاية، إلا تفسير أنه مبني على آراء دينية لبعض مواطنيها. من الواضح أنّ القناعة الأصولية الطائفية كانت ولا تزال سبب وجود هذا القانون)⁽¹¹⁶⁾، مستندةً إلى مبدأ عدم التأسيس المنصوص عليه في الدستور الأمريكي للاعتراض على مفاد هذا القانون.

الأمر الأكثر يقينًا أنه لم يتوقع أنّ نظريته ستصبح تُعامل كمُسلّمة أو نظرية رسميّة في الوسط العلمي – كما هي الآن –، فما هي نظرية التطور؟ وما موقعها العلمية؟ وما هي أهم دلائلها ومآلاتها بالنسبة للأسئلة الوجودية؟!

مؤشرات نظريّة التطور

مع غمض التّظر عن إسقاطات ستيفن جولد، سنحاول استعراض نظريّة التطور من زاوية علميّة بحثة قبل الكلام عن دلائلها الفلسفيّة، يُحتمل أنك سمعت ذات مرّة أنّ نظرية التطور تعني أنّ الكائن البشري نشأ من القرد، وهذه عبارة غير دقيقة تمامًا، فقد جاء في الموسوعة العربية العالمية: (النظرية المعروفة بنظرية التطور: تقوم هذه النظرية على القول بأن أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأنها بدأت من خلايا حية بسيطة تكونت في زعمهم عن طريق المصادفة عبر عمليات كيميائية مركبة، ثم تطورت إلى كائنات كبيرة معقدة)⁽¹¹⁷⁾، والأفضل أن نستعين بما جاء في كلمات «داروين» نفسه، في مقدمة كتابه الثوريّ «أصل الأنواع»: (من البين أن الباحث الطبيعي إذا تدبّر أصل الأنواع، وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية من الخصائص المتبادلة، وما بين أجنحتها من التشابه، واستيطانها، أي اقتسام الكائنات الحية بقاع الأرض وتوزعها فيها، ثم تعاقب وجودها في خلال الأزمنة الجيولوجية، إلى غير ذلك من الحقائق العامة، انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت كالضروب من أنواع أخرى)⁽¹¹⁸⁾

ومعنى ذلك أنّ جميع أشكال الحياة المتمثلة في المخلوقات المختلفة ترجع معًا إلى سلف مشترك، وإنّما نشأت هذه الأشكال المختلفة من الحياة نتيجةً لأكية تطورية أسماها داروين بالانتخاب الطبيعي، فالقرد ليسوا أجدانًا – كما يقال –، بل هم أبناء عمومتنا، وليس القرد فقط وإنما سائر الأجناس الحيّة حتّى البكتيريا والخميرة والحشرة، وقد تبدو هذه الفكرة مشينة لوهلّة ما لكنّ هذا ليس مهمًا حاليًا، والأهميّة للتعرف على الدليل!⁽¹¹⁹⁾

التشابه الظاهري

إذا رأيت شخصين متشابهين يسيران معًا في إحدى المناسبات الاجتماعيّة، فقد بطرأ على ذهنك أنهما إخوة أو أبناء عمومة، وإذا كان التشابه عظيمًا ودقيقًا – في ملامح الوجه ونغمة الصوت وطول القامة – فستظنن أنّ بينهما علاقة نسبيّة، أي أنّ لدهما «أصول مشتركة»، وهذا يُشبه دليل داروين.

فحينما تقلّب وجهك في الأنواع الحية شرقًا وغربًا، تجد أمامك خصائص مشتركة تتكرر، على سبيل المثال، الحصان والضفدع والسمك والإنسان، وهم أشكال مختلفة من أنواع الحياة، إلا أنّ لديهم نطاقًا واسعًا من الاشتراك، فهم يشتركون في الإبصار بواسطة آلة «العين»، ويشتركون في وجود أطراف، وفكوك لتناول الطعام، وفي حاجتهم الملحة للماء، إلا أنك لا يتبادر إلى ذهنك وجود علاقة نسبيّة بينهم كالأخوة أو أبناء العمومة الذين يسبرون معًا في مناسبة اجتماعيّة، والسبب في ذلك ببساطة أنك تلاحظ – إلى جانب ملاحظتك لنطاق الاشتراك بينهم – نطاقًا واسعًا للاختلاف والتعدد.

ما يُضيفه داروين هنا هو أنّ نطاق الاختلاف بين المخلوقات الحية ليس بأصيل في الحياة، لكنّ نطاق الاتفاق أصيل فيها، فيمكن أن يوجد اختلاف بين الشخصين المتشابهين الذين يسيران معًا في مناسبة اجتماعيّة، وذلك لا ينفي كونهما إخوة أو أبناء عمومة، فيمكن أن يتحدث أحدهما بالإنجليزية لأنه أقام سنينًا في أميركا، بينما يتحدث الآخر بالعربية لأنه يقيم في المملكة العربية السعودية، ويمكن أن يكون شعر أحدهما أجمل من الآخر لأنه عاش في مناطق أكثر برودة ولطافة، أو أن يكون لباس أحدهما أفضل من الآخر لأنّ له زوجة مخلصّة تعني بمظهره بينما يبدو أنّ الآخر أعزب وتعيس، وهكذا كلما زادت الاختلافات الفرعيّة بينهما ستلاحظ أنك لا تلتفت مباشرةً لكونهما إخوة أو أبناء عم، على الرغم من وجود اتفاقات أصيلة.

وبعبارة أخرى: إن السبب الذي يجعل ترجيحك لكونهما إخوة أو أبناء عمومة منطقيًا أو مفهومًا على الرغم من وجود مساحة للاختلاف بينهما، هو أنّ هذه المساحة من الاختلاف يُمكن أن تتولد من طبيعة الظروف التي يعيشها كل واحد منهم، فليست هي إلا سمات

عارضة أنشائها الضرورة.

ونحن لمّا وجدنا أنّ نطاق الاشتراك بين أنواع الحياة يُشكّل عنصرًا جوهريًا لكيونتها، خلّاقًا لنطاق الاختلاف الذي ينعكس في العادة عن تفاعل وإنسجام بين الكائن الحيّ وبيئته وظروفه المحيطة، اعتقدنا أنهما اختلافات غير أصيلة كاختلاف الأخوين في اللغة أو في شكل اللباس، أي أنها ناشئة عن «التكيف»، وهو أحد أهم مفردات آلية «الانتخاب الطبيعي».

فوجود القدمين أساسى بالنسبة لكلّ من الإنسان والقرد، وهي صفة مشتركة بينهما، وكلاهما يمتلك في قدميه أصابع خمسة، ولكن يمكن أن تكون أصابع الإنسان متوازية بينما تكون أصابع بعض القردة – كقرد جيبون – متعكسة، ومرد ذلك إلى أن قرد جيبون من الحيوانات الشجرية التي تعتمد على التسلق كثيرًا، أي أنّ نطاق الاختلاف نشأ في الحقيقة بسبب تكيف كل نوع مع بيئته المعيشية، وهكذا يجري الأمر، فكلّما نظرنا إلى بيئتين مختلفتين وجدنا أنّ نطاق الاختلاف يتضح بصورة جليّة، ولكنّ نطاق الاتفاق – مهما ضربنا ابتعادًا – يبقى له وجوده الأساسي، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأنّ الاختلاف إنما نشأ حصراً من ظاهرة التكيف، وأنّ الحياة ليست إلا ضروريًا من سلف مشترك قديم.

كتب «محمد كامل سند»⁽¹²⁰⁾: (على الرغم من أن أطراف الحصان لا تشبه أطراف الضفدع التي تختلف بدورها عن أطراف السمك كما وأن أطراف البشر تختلف عن أطراف الطير، فإن علماء التشريح المقارن يؤكدون أنها قد بنيت على أساس واحد ووفق نظام معين هو نظام تخميس الأصابع، صحيح أنها اختلفت في شكلها العام فتلك ضرورة اقتضتها ظروف البيئة المحيطة لم يكن منها مفر. وبالنظر إلى أن النظام الذي شيدت عليه هذه الأطراف واحد، فليس هناك سوى تليل واحد لذلك هو أنها قد نشأت جميعها من أصل واحد مشترك ثم اقتضت الحاجة إلى أن يختلف هذا العضو عن ذاك وفقًا لما تتطلبه الطبيعة من احتياجات)⁽¹²¹⁾

ومن أهم نطاقات التشابه التي جعلها داروين أصلاً في استنتاجه لنظرية التطور عن السلف المشترك، النموّ الجنيني، فقد لاحظ أنّ الخفايش والطيور والخيل وعامة ذوات الأربع – وهي حيوانات مختلفة النوع والبيئة – تمرّ بمراحل نموّ جنيني متماثلة⁽¹²²⁾، وهي الملاحظة التي بعثت في نفسه غاية الدهشة التي عبّر عنها بقوله: (لو أن مجموعتين من الحيوانات مهما اختلفتا في التركيب والعدادات تمران بمراحل جنينية واحدة أو متشابهة، لأمكننا أن نشعر بالثقة من أنهما انحدرتا من سلف واحد، أو أسلاف متشابهة وبالتالي فهما على هذا الأساس على درجة وثيقة من القرى، وإذن فالاشتراك في التركيب الجنيني يكشف عن الاشتراك في الأصل والتطور)⁽¹²³⁾

تشابه أكثر عمقًا

كان رصد مساحة التشابه بين أشكال الحياة في عصر داروين متركزًا في التشابه الظاهري، ومعه بعض المعطيات المكشوفة للعلم آنذاك، وكلّما أخذت آليات الدراسة العلمية تتطور وتنمو، وتظهر معها مديات أعمق وأدق من التشابه بين أشكال الحياة – الأمر الذي حصل بصورة أوسع بعد داروين – كان الجواب على سؤال الأساس الذي يجمع هذا التشابه الهائل أكثر حضورًا وإلحاحًا.

وقد أفردت جامعة أوكسفورد في سلسلة أعمالها المختصرة كتابًا خاصًا تحت عنوان «التطور.. مقدمة قصيرة جدًّا»، اشترك في تأليفه كلٌّ من «بريان تشارلزورث»⁽¹²⁴⁾ و«ديورا تشارلزورث»⁽¹²⁵⁾ أحشد فيه المؤلفان ما يدخل تحت إطار أحدث الكشوفات العلمية التي تؤيد نظرية التطور، فإنّ الفكرة التي أطلقها داروين لم تنته بموته على ما يبدو، ولأنّ الحديث في موضوع علمي تخصصي، فسأحاول اقتباس بعض أهم الأفكار المدوّنة في هذا المصدر المعتمد، والتي توقفنا على قواعد وزوايا تُسهم في فهم دلالة النظرية.

1 – «الأعضاء اللاوظيفية» لدى بعض المخلوقات الحية، وهي أعضاء توجد في البنية الجسميّة لبعض الكائنات من دون أن يكون لها عمل أو غاية مهمة، فالكائن يعيش بدونها ولربما تتحسن معيشته بدونها، ولكنّ المُثير حقًا أنّ هذه الأعضاء عادةً ما تكون فاعلة جدًّا وضروريةً لكائنات حيةً أخرى، وهذا كفيّل بتولّد احتمال وجود سلف مشترك لهذه المخلوقات معًا، حيث يفسّر استغناء بعض المخلوقات عن هذه الأعضاء أو عدم حاجتها إليها بالطرفة التطوريّة: (لقد تنبها منذ زمن إلى أن الأعضاء اللاوظيفية ما هي إلا بقايا لبنى كانت عاملة في أسلاف الكائنات الموجودة حاليًا، إن تطورها مثير للاهتمام كثيرًا، لأن هذه الحالات يمكنها أن تُخبرنا بأن التطور لا يخلق دوماً بنى جديدة أو يُحسنها، وإنما في بعض الأحيان يختزلها. ومن الأمثلة المعروفة لذلك الأمر الزائدة الدودية لدى الإنسان التي هي نسخة مختزلة من جزء كبير الحجم من القناة الهضمية لدى قردة الأورانج أوتان.... زعانف

الحياتان تبدو مشابهة للغاية لزعانف الأسماك، ومن الواضح أنها مكيّفة بحيث تلائم السباحة، فإن بنيتها الداخلية تُشبه أقدام الثدييات الأخرى، باستثناء وجود عدد أكبر من الأصابع. هذا أمر منطقي، في ضوء الأدلة الأخرى التي تشير إلى أن الحياتان ثدييات معدلة⁽¹²⁶⁾.

2 – «أساس الوحدة الوراثية»، يعتبر تطوّر علم الجينات ولادةً جديدةً لنظرية التطور، فقد أزاح علم الجينات الستار عن حقيقة صارخة، وهي التشابه الفطّيع في حروف ورموز السلاسل الجينيّة للكائنات الحيّة المختلفة، وأنّ ما يتخلل سلاسلها من الاختلافات الطفيفة لا تكاد تلاحظها العين، يمكننا الوقوف على مقارنة بين 40 نوعاً من الأحماض الأمينيّة DNA المرتبطة بالتتابعات البروتينيّة محدد في كائنات مختلفة، وقد اختار المرجع العلمي المشار إليه الأحماض الأمينية داخل الجين المسؤول عن مستقبلات الهرمون في [الإنسان، الشمبازي، الكلب، الفأر، الخنزير]⁽¹²⁷⁾، وبملاحظة الجدول الذي يصف الحروف المتتالية في السلسلة الجينية يجد المرء نفسه أمام تماثل مطبق، خصوصاً بين الإنسان والشمبازي: (وعلى امتداد النطاق الكامل للكائنات الحية، تختلف الشفرة الوراثية بقدر طفيف للغاية، وهو ما يوحي بقوة بأن كل أشكال الحياة على الأرض قد انحدرت من سلف مشترك)⁽¹²⁸⁾، الجدير بالذكر أنّ جائزة نوبل في الطب عام 2022 منحت للعالم السويدي «سفانتي بابو» على إثر إثباتاته العلميّة التي قدّمها من خلال الكشف الجيني لإصبع بشريّة تعود لأكثر من 70 ألف عام، عُثِر عليها أثناء عمليات التنقيب، ومقارنتها بالسلاسل الجينيّة الحديثة للبشر وبعض الحيوانات الأخرى: (أوضحت دراسة حديثة أن «الاختلاف» في تشعب التتابع بالنسبة إلى ثلاثة وخمسين من الـدي إن إيه غير المشفرة التي جَرَتْ مقارنتها بين الإنسان والشمبانزي تراوح بين 0 و2,6 بالمائة من إجمالي عدد الحروف، بمتوسط قدره 1,24 بالمائة... هذه التقديرات تبين لماذا يعد مقبولاً الآن، أنّ الشمبانزي هو أقرب الكائنات الحيّة إلينا))⁽¹²⁹⁾

3 – «العلاقات الجينيّة التبادليّة»، يدور بحث جاد بين علماء الأحياء وعلماء الطب والبيطرة الآن حول إمكانيّة الاستفادة من الثروة الجينيّة الحيوانيّة في التغلب على المشاكل الجينيّة لدى بعض البشر، أو بالعكس، ويمكن أن

يكون قد خطر بالك تساؤل عن السبب الذي يتم من أجله اختبار الأدوية على بعض الكائنات الحيوانية [كالفئران أو القروذ] قبل اعتمادها للإنسان، ليس ذلك إلا للتشابه في العناصر البيولوجية وعلى رأسها العنصر الجيني، فلو كان عندنا خلل جيني لدى أحد أفراد الإنسان، وكان هذا الخلل يضرب بعض الوظائف الإنسائية الأساسية كالإبصار مثلاً، فهل يمكننا الاستعاضة عن هذا النقص بجين حيواني مثلاً؟، للعلماء أبحاث وتجارب في هذا الباب، فمثلاً: (على نحو مثير للذهول، إنه من الممكن عادةً تصحيح عيب أضي في خلايا الخميرة عن طريق إدخال جين حيواني أو نباتي فيها تكون له الوظيفة عينها؛ فخلايا الخميرة التي بها طفرة تتسبب في عجزها عن امتصاص النشادر، عُولجت عن طريق إدخال جين بشري في خلاياها الجين المسئول عن بروتين مجموعة الدم الريصي، آر إتش جي إيه، «الذي اشتبه في أن له وظيفة ذات صلة»، إن النسخة الطبيعية (غير المتحورة) لهذا البروتين لدى الخميرة، بها العديد من الاختلافات المتعلقة بالأحماض النووية مقارنة بنسخة البشر، ومع ذلك يستطيع الجين البشري في هذه التجربة أداء وظيفته خلايا الخميرة التي تفتقر إلى نسخة طبيعية خاصة بها. تخبرنا نتيجة هذه التجربة أيضاً أن أي بروتين به تغيير في تتابع الأحماض الأمينية الخاصة به يستطيع العمل أحياناً بشكل طيب)⁽¹³⁰⁾ و: (وجميع الحيوانات التي خضعت للدراسة تستخدم بروتينات متشابهة بدرجة كبيرة في عملية استقبال الضوء والمواد الكيميائية، وكمثال على أوجه الشبه التي اكتشفت خلايا الكائنات المختلفة، نجد الميوسين (الحركي)، الشبيه بالبروتينات الموجودة في الخلايا العضلية، يشترك في عملية نقل الإشارات في أعين الذباب وفي آذان البشر، وتتسبب الطفرات التي تحدث للجين المسئول عن هذا البروتين في إحداث أحد أشكال الصمم)⁽¹³¹⁾

4 _ واقعية الانتخاب الطبيعي.. إنَّ ما يزيد من وثوقنا بصحة نظرية التطور، هو ما نلامسه في الواقع من صحة فروضها، ومن أهم تلك الفروض الملموسة هي عملية الانتخاب الطبيعي القائمة على فكرة التكيف من خلال الطفرات، فالكائنات الحية التي تواجه مشاكل في بيئتها الحيوية، ستفنى بعضُها بفعل تلك المشاكل، وأخرى ستعالج أو تطوّر في ذاتها نظاماً للتغلب

على المشاكل ومواصلة الحياة، وهذه الفئة بالتحديد هي التي يكون لها النصيب الأوفر من التكاثر، وبالتالي يبدأ النوع في التطور تدريجياً وتبدأ الكائنات غير القادرة على التكيف في الاختفاء عن صفحة الأرض، ومن أهم أمثلة هذه الحقيقة ما يُرصد اليوم من انخفاض تأثير المضادات الحيوية في تخلص الإنسان من الأمراض البكتيرية، وذلك لأنّ أنواعاً جديدة من البكتيريا نشأت، حيث تتميز هذه الأنواع – للأسف – بقدرتها على التكيف مع المضادات والتغلب عليها، وهنا أترك المجال لمصدرنا العلمي كي يصف واحداً من أهم التحديات العلميّة المعاصرة: (ثمة نوع مهم للغاية من الانتخاب الطبيعي يعمل في وقتنا حالي ويسبب مقاومة متزايدة لدى البكتيريا للمضادات الحيوية، وهذا مثال على تغير سريع خاضع لدراسة مكثفة؛ لأنه يهدد حياتنا، ويحدث بوتيرة سريعة وعلى نحو متكرر للأسف. في اليوم الذي كتبنا فيه هذه الكلمات كانت عناوين الصحف تتحدث عن تفشي البكتيريا العنقودية المقاومة للميثيسيلين في مستشفى إدنبرة الملكي. وكلما استخدم مضاد حيوي على نطاق واسع، نجد سريعاً بكتيريا مقاومة له. استخدمت المضادات الحيوية على نطاق واسع للمرة الأولى في أربعينيات القرن العشرين، وسريعاً ما أثّرت المخاوف المتعلقة بمقاومة المضادات الحيوية من جانب علماء الأحياء الدقيقة، وفي عام 1955 ورد في مقال منشور في مجلة الجمعية الطبية الأمريكية، التي تخاطب الأطباء، أن الاستخدام غير المميز للمضادات الحيوية محفوف بخطر انتخاب سلالات مقاومة»، وفي عام 1966 (حين لم يغير الناس سلوكهم)، كتب عالم آخر في مجال الأحياء الدقيقة يقول: «أما من سبيل لتوليد قلق جماعي كاف بحيث يمكننا مجابهة موضوع مقاومة المضادات الحيوية»⁽¹³²⁾.

هناك أيضاً أمثلة أخرى لواقعيّة فرضيّة التطور بالانتخاب الطبيعي، كبعض أنواع الفئران التي لوحظ تطوّر مقاومتها لسمّ الفئران، حيث أنّ سمّ الفئران «وارفين» يعتمد على منع تخثر الدم، ولكنّ جيلاً من الفئران حدثت لديه طفرة مرتبطة بوظيفة الفيتامين ك، فتطوّرت عمله في فاعليّة تخثير الدم حتّى مع وجود السم⁽¹³³⁾.

هذا عرض لبعض الشواهد والدلائل العلميّة المعاصرة لنظريّة التطوّر، ونتيجةً لهذه الملاحظات المتراكمة، نستطيع اليوم أن نصف نظريّة التطور بأنها فكرة معتمدة ومسلمة في الوسط العلمي، أو في المساحة الأوسع منه على الأقل، ويمكننا أن نقبّس من «كريستوف فولف»⁽¹³⁴⁾ نقله لأهم مقوّمات النظرية عن «إرنست ماير»⁽¹³⁵⁾، لنكون أمام نظرة شاملة: (وقد ميز إرنست ماير في «مجلة طيف العلوم» أربع مسلمات تعد مركزية في نظرية داروين للتطور. وفيها يتبين أن العالم لا يفهم سكوتيا بل هو يفهم كحركة دائبة.

فأولاً: الأنواع تتغير بصورة متصلة وبعضها يفنى والبعض الآخر ينشأ من جديد. وكما تثبت البقايا الإحاثية فإن هذا التغير ينتج عن تغير في شروط الحياة والتطور.

وثانياً: يتحقق ببطء شديد وبصورة متصلة فلا تحصل فيه قفزات مفاجئة.

وثالثاً: يعتبر داروين أنه بوسعنا أن نرجع كل ما هو حي إلى قفزة أصلية واحدة مشتركة.

ورابعاً: ينطلق داروين من نظرية الانتخاب الطبيعي أو الاختيار. وخلال توالي الأجيال ينشأ تنوع كبير في الزاد الوراثي. وبذلك تتواصل دون شك حياة الأنواع التي تكون أفضل توليفات صفاتها أكثر مناسبة للتوافق مع الوسط البيئي. ويتحقق التطور بفضل التناوب بين مراحل من الركود ومراحل من التغير المتسارع⁽¹³⁶⁾.

التحديات التي تلوح لنظرية التطور

كثا قد أخذنا على أنفسنا عهداً صعباً في مقدمة البحث، وهو أن نحاول قدر استطاعتنا أن يكون سلوكنا في طياته «موضوعياً» غير منازح، لأجل ذلك لم نغير على النظرية الداروينية عيوراً ساذجاً أو ساخرًا بالتهكم مثلاً على اعتقادها بنحو من العلاقة العائليّة بين الإنسان وبقية صنوف الحيوانات كما يفعل بعض الانفعاليين من المتديّبين وغيرهم، وكذلك نحن الآن، بصدد التعرض لنقطة يعدّ إغفالها إخلالاً بتعهدنا أمام الضمائر الكريمة، وهي الأصوات العلميّة النقديّة لنظرية التطور وما تقوم عليه اعتراضاتها من الأسس، وهذا يتطلّب منا زحماً نفسياً في قبال الدعاية التي يجابه بها كلٌّ من يعارض التطور أو يحتمل صدق مخالفته بأنه رجعي أو غير منسجم مع العلم – مع التأكيد أننا لسنا هنا بصدد تقديم الدليل على رفض نظرية التطور، وإنما بصدد عرض هذا الجزء من الصورة ليكتمل المشهد – فلن نكون والحالّ هذه أهين أو خائفين من الأوصاف التعسّفية التي يطلقها أمثال خزعل الماجدي⁽¹³⁷⁾: (إن الادعاءات الكاذبة التي يروج لها بعض رجال الدين والمتخلفون، وهم الذين لا يعرفون مضمون نظرية داروين ولم يقرأوا كتبه، هذه الادعاءات التافهة التي تقول بأن العلم نفسه أثبت خطأ نظرية داروين، فهم إنما يؤكدون جهلهم بالنظرية ويعلم تاريخ الأنواع الحية، وهو علم رفيع وعلى قدر كبير من الأهمية والتخصص... بعد كل هذا يأتي السفهاء الجهلة ليطلقوا جملة صفراء واحدة وهي «العلم نفسه أثبت خطأ نظرية داروين»⁽¹³⁸⁾).

السجل الأحفوري

السجل الأحفوري متحف كبير للأرض، لكنّ قيمته لا تنحصر في الفنّ والسياحة لأنّ له قيمة علميّة أعلى، فيمكن من خلاله اختبار الروايات التاريخية والفرضيات العلميّة التي تتوقع المستقبل على أساس الماضي، وواحدة من السرديات التي يمكن اختبارها من خلال السجل الأحفوري هي نظرية التطور، فإذا كانت نبوءات داروين حقائق علميّة، فهذا يعني أنها كانت جارية في السابق وهي تجري الآن لتصل الماضي بركب المستقبل، فما هي كلمة الحفريات، وماذا تتكلم الحجارة المنحوتة وأثار الحيوانات في هذا الشأن؟

بالعودة إلى السجلات العلميّة، يبدو لكلمات السجل الأحفوري مستوىً رفيعاً من الإثارة، فنمّة أحداث حيويّة بيولوجيّة يحويها السجل الأثري يستعصي حلّها أو فهمها وفق قواعد داروين والتطوريين، وأهمّها كلمة «الانفجار الكامبري»، وهو يشير إلى حقبة غير طبيعيّة من جهة اكتشافنا الحفريّة.

ولنفهم الفكرة بعيداً عن تعقيد المصطلح، فلابد أن نلقي نظرة تاريخية مبسطة على ما قبل «الانفجار الكامبري»، تعود بداية اكتشافاتنا الأثرية والإحاثيّة فيما يتعلق بعناصر الحياة على الأرض إلى عصر «الأمّد السحيق» – 4500 مليون سنة – وعصر «الأمّد العتيق» – 2500 مليون سنة – وكلا العصرين على الرغم من طول المسافة بينهما لم يحفلا بأشكال معقدة من الحياة سوى بعض التركيبات الخلوّية البسيطة وبعض أنواع البكتيريا، وقد تلا هذين العصرين وخلال مدة غير طويلة – قياساً بهما – ظهور ملايين الأشكال المعقدة من الحياة من دون أيّ سابقة إنذار! وتعبير خزعل الماجدي سالف الذكر: (قبل 542 مليون سنة حصل الانفجار الكامبري حوالي حيث ظهرت بشكل مفاجئ أنواع كثيرة من الحيوانات يقدر عددها بعشرة ملايين نوع)⁽¹³⁹⁾.

ويتوصيف علمي أكثر دقّة، كما يقول أستاذ الكيمياء التطورية «نيك لين»⁽¹⁴⁰⁾: (في أحيان قليلة، حدثت بعض الأشياء بسرعة. الانفجار الكامبري، على سبيل المثال، كان بالأساس انتشاراً سريعاً لطرز بدائية من الخلايا حقيقية النوى. كان ذلك الانفجار لحظة جيولوجية من عمر الزمان استمر مليوني عام فقط. ظهرت حيوانات كبيرة فجأة، وتركت أثارها في سجل الحفريات لأول مرة. لم تكن تلك الأنواع مختلفة اختلافات ظاهرية وحسب، وإنما كانت حيوانات حية الأشكال رائعة الأجسام، اختفى بعضها مجدداً سريعاً كما ظهر سريعاً. فكان تلك الحيوانات كانت نائمة خامدة في سجل القدر ثم استيقظت فجأة لتعوض دهوراً سابقة)⁽¹⁴¹⁾.

والانفجار الكامبري يمثّل معضلة بالنسبة لنظرية التطور، لأنه حدث موثّق لظهور طيف واسع من المخلوقات الحيّة فجأة ودون سابقة تطوّر طويل ومعقد كما تدّعي النظرية، وبدل على ذلك البون الشاسع بين سجل الحفريات في الزمن الكامبري وبين الزمن السابق له. وبعدّ معارضوا النظرية التطوريّة حدث الانفجار الكامبري مثلاً مضاداً لإبطائها، على طريقة علماء المنطق الذين قالوا «السالبية الجزئية تنقض الموجبة الكلية»⁽¹⁴²⁾.

اللافت أن داروين نفسه لم يكن غافلاً عن هذه المشكلة، إلا أنه حاول تبريرها بأنّ الواصل إلينا من السجل الأحفوري ليس حقيقة جميع الأشياء، فيمكن أن تكون هناك سلالات تطوريّة سُحقت أو اختفت لأي عامل من العوامل: (من ناحيتي فإنني أؤمن بقولة «سير لايل»: إنّ السجل الجيولوجي بوصفه تاريخاً لهذه الدنيا، إنما هو سجل ناقص ومكتوب بلهجات متغايرة على الدوام، وإنما لا نملك من هذا السجل إلا المجلد الأخير، ولم يبق كاملاً من هذا المجلد إلا فصول قصار تناثرت هنا وهناك، كما لم يبق من كل صفحة منها إلا بضعة سطور هذا هنا وذاك هنالك، في حين أن كل كلمة من تلك اللغة المنطوية ببطء وهوادة، تختلف – إن قليلاً وإن كثيراً – مع تناوب الفصول. وعامة ذا يمكن أن يُمثل به لصور الحياة المنطمرة في جوف التكوينات المتتالية، والتي تُظهر لأعيننا خطأ، أنها قد ظهرت فجأة ودخلت الحياة عنوة. إذا أخذنا بذلك، فإن الصعوبات التي ناقشناها قد تضمحل إلى درجة كبيرة، أو هي تحمى بته)⁽¹⁴³⁾.

لكنّ ما ذكره داروين من تبرير لا يعدو كونه احتمالاً، والاحتمال لا يعوّل عليه في إثبات الحقائق، خصوصاً مع ملاحظة أنّ فرصة بقاء آثار الكائنات المعقدة في السجل الأحفوري على فرض وجودها قبل الانفجار الكامبري أكبر من فرصة بقاء آثار الكائنات الساذجة والبسيطة، ومع ملاحظة أن التقدم العلمي بعد داروين وإن حاول أن يسد بعض الثغرات في السجل الأحفوري ليلتئم بين معطياته وفرضيات داروين إلا أنه دائماً ما كان يصطدم بفجوات أعقد وأوسع لم يتم ترميمها وسدّها سداً حقيقياً لغاية اللحظة.

التعقيد غير القابل للاختزال

التعقيد غير القابل للاختزال، هو مفهوم علمي حرره عالم الكيمياء الحيوية «مايكل بيهي»⁽¹⁴⁴⁾، وقد عرّفه بأنه: (نظام حيوي مفرد يتألف من عدد من الأجزاء المتوافقة والمتفاعلة المساهمة في وظيفة حيوية أساسية، بحيث أن إزالة أيّ من هذه الأجزاء إلى توقف النظام عن العمل تماماً)⁽¹⁴⁵⁾

شيّد مايكل بيهي فكرته وركّزها في كتابه المهم «صندوق داروين الأسود»، وملخص ما عرضه بيهي هو أنّ الكيمياء الحيويّة الحديثة تمكّنت من رصد أنظمة بنويّة معقدة لدى الكائنات الحيّة، بحيث أنّ هذه البنى لا تؤدّي أيّ وظيفة مفيدة إلا مجتمعة في سياق خاص، وهذا يجعلنا نُشكّل على فرضيّات نظريّة التطوّر، لأنّها تقوم على فكرة أنّ الأنظمة الحيويّة لم توجد دفعةً واحدة، وإنّما تشكلت في سياق تراكمات بطيئة ومتعاقبة، في حين أننا نعلم اليوم أنّ بعض الأنظمة لا يمكن أن تتشكل وفق تسلسل بطيء لأنها لا يمكن أن تؤدّي أي وظيفة إلا إذا تراكمت تركيباً معقداً.

وعادةً ما تُستخدم «مصيدة الفئران» مثالاً توضيحياً لفكرة بيهي، فمصيدة الفئران – وإن كانت مثلاً غير لطيف من بعض الوجوه – إلا أنها نموذج واضح لاجتماع التراكيب المعقدة التي لا تؤدي وظيفتها إلا معاً، فبتكوّن نظامها من لوح خشبي وناض ومطرقة معدنيّة و...، ولكن لهذه التركيبات أداء الوظيفية – وهي صيد الفئران – إلا من خلال جميع العناصر معاً، فلا يمكن أن تعمل مصيدة فئران بواسطة لوح خشبي فقط أو مطرقة فقط، مالم يكونا مجتمعين مع الأجزاء المؤثرة الأخرى بطريقة خاصّة، وهذا يعني أنّ الآلة لن تعمل لو كانت بعض أجزائها نشأت أولاً، ثمّ تكونت بعد مدة طويلة بعض الأجزاء الأخرى، إلى أن اكتملت السلسلة.

حاول بيهي أن يستعرض نماذج عديدة من الواقع الذي تتعامل معه الكيمياء الحيويّة من الأنظمة التي لا يمكن أن تعمل إلا دفعةً واحدة ومن دون تطور وتدرّج، ومن أهمّ النماذج التي ركّز عليها هي «العيون البشريّة»، فهل كان البشر السابقون عمياناً؟ أو هل كانت أعينهم مجرّد زينة لا تعمل قبل أن تستكمل مراحل التطوّر؟!

انطلق بيهي من تحدّد كان قد أطلقه داروين لمن يستطيع أن يقوِّض نظريّته، من خلال تقديم نموذج لعضو معقد تكوّن دفعةً واحدة، لقد كان داروين ملتفتاً إلى وجود بنى معقدة في النظام الحيوي، لكنّه أقلّ أن تكشف الدراسات اللاحقة والسجلات الأحفوريّة مسارات وسلاسل تطوّرهما على نحو يرفع الريب، أمّا توصيف بيهي للمشهد: (بالنسبة لداروين كانت الرؤية بمثابة صندوق أسود؛ لكن بعد العمل الشاق والمترامك لجهود الكثير من علماء الكيمياء الحيوية فإننا الآن نفترب من أجوبة سؤال حاسة البصر، ستروك الفقرات الخمس التالية برسم كيميائي حيوي عن طريقة عملية العين)⁽¹⁴⁶⁾

يستمرّ مايكل بيهي بعد هذه الفقرة في كتابه، في وصف آخر ما توصلت إليه الكيمياء الحيويّة من العمليات المركبة والأجزاء المعقدة المجتمعة في «العين البشريّة» والتي لا يمكن لها أن تقوم بوظيفتها «الإبصار» إلا بها جميعاً.

يبدأ المشهد بسقوط فوتون ضوئي على الشبكيّة، وخلال أقلّ من بيكو ثانية واحدة – البيكو ثانية تقريبا هي الوقت الذي يستغرقه الضوء ليقطع مسافة شعرة واحدة من الإنسان! – يتفاعل الفوتون الضوئي مع جزيء (Cis - retinal)، والنتيجة عن هذا التفاعل هي حدوث تغيير في حجم بروتين يدعى (Rhodopsin) ليصبح أكبر حجماً، وهذا التمدد ينتج عنه تفاعل يغيّر في سلسلة من البروتينات الدقيقة في العين، فتتسبب عدة بروتينات جديدة تختلف وظيفياً عن البروتينات الأولى، ثمّ ترتبط هذه البروتينات ببعض الجزئيات وبذلك تحدث عمليّة الإبصار.

الحقيقة التي تمثّلت لبيهي، هو أنّ وظيفة الإبصار لا يمكن أن تنتج من العين إلا وفق هذا النظام المعقد من التركيب حصراً، أي بدونها لا يمكن للعين أن ترى، وهذا يعني ببساطة أنّ العين لا يمكن أن تؤدّي وظيفتها عبر مسار تطوّر، وحيث أنّ العين موجودة في أقدم السلاسل الأحفوريّة، وليس عندنا ما يدل على عدم وجودها لدى آبائنا، فضلاً عن وجود ما يدل دلالة ناصعة أنّ آباء البشريّة كانوا يتمتعون بحاسة البصر، فهذا دليل كافٍ على أنّ التطوّر ليس صحيحاً، أو على الأقلّ ليس شاملاً لجميع تركيبات الحياة.

(الآن وقد فُتح الصندوق الأسود للرؤية لم يعد كافياً للتفسير التطوري لتلك القوة (قوة الإبصار أن تؤخذ البنى التشريحية فقط لكامل العين في الاعتبار، كما فعل داروين في القرن التاسع عشر وكما يستمر مروجو التطور بعملهم حتى اليوم. إن كل الخطوات التشريحية والبنوية التي اعتقد داروين أنها بسيطة تتضمن في الواقع عمليات بيوكيميائية معقدة بشكل مذهل لا يمكن التحايل عليها بحيل لغوية)⁽¹⁴⁷⁾

ولم يكتف داروين بمثال «العين البشريّة» لدعم دعواه في التعقيد غير القابل للاختزال، وإنّما حشد بعض النماذج الأخرى كـ «خثرة الدم»، و«أسواط البكتيريا»، وإنما انتقينا نموذج العين على سبيل التوضيح.

وقد وجهت نقودات لفكرة بيهي، من أبرزها النقد الذي وضّحه أستاذ البيولوجيا كينيث ميلر⁽¹⁴⁸⁾: (في الواقع، ثمة آليات طبيعية معقولة لجميع الأمثلة التي ساقها بيهي على النظم المعقدة تعقيداً غير قابل للاختزال. فإن إحدى الطرق التي يمكن بها للانتخاب الطبيعي إنتاج نظم معقدة تعقيداً غير قابل للاختزال هي عن طريق الجمع بين عناصر قد تطورت من قبل بفعل الانتخاب الطبيعي كي تؤدّي وظائف أخرى)⁽¹⁴⁹⁾

ومقصد ميلر أننا وإن لم نتمكن من تبرير وجود وظيفة حيوية كالإبصار إلا بواسطة هذا التعقيد المناقض للتطور، فيمكننا أن نبحث عن وظائف أخرى لكل واحد من هذه التركيبات، بحيث تكون أفراد التركيبات ناتجة عن التطوّر، وكانت تؤدّي وظيفة ما، ثمّ اجتمعت بعد ذلك لتؤدّي وظيفة كالإبصار بالعين مثلاً.

ومن النقودات أيضًا النقد الذي وجهه دوكنز: (وليس من الحق أن كل جزء ضروري لنجاح الكل. ووجود نظام بسيط بدائي نصف مكتمل، لعين – أو أذن – أو لنظام تحديد الموضع بالصدى – أو لنظام تطفل الوقواق.. الخ، هو أفضل من لاشئ على الإطلاق. فمن دون عين تكون أعمى تماما. وينصف عين ربما أمكنك على الأقل أن تكشف الاتجاه العام)⁽¹⁵⁰⁾

لكن كلا النقيدين لا يعدوان كونهما ترفيقًا معيّنًا، فما بكل يهبي لم يقل أنّ عمل هذه التركيبات مفردة في وظائف أخرى غير ممكن ومستحيل، لكن هناك فرق دائمًا بين ما هو ممكن وما هو ثابت: (وكمثال على ذلك فنظرية مركزية الأرض ليست مستحيلة منطقيًا بل مجرد نظرية خاطئة، لا يجب على أية نظرية علمية أو بإمكانها أن تلغي التفسيرات المنافسة عبر إثبات أنها مستحيلة منطقيًا، وهذا الأمر يجري على التصميم الذكي أيضًا، تنتج النظريات العلمية عندما تفسر البيانات بشكل أفضل من النظريات المنافسة)⁽¹⁵¹⁾، ولذا: فالتدريج بإمكان وجود وظائف أخرى لهذه التركيبات من دون تقديم دليل فعليّ ليس إلا كلاكًا في الهواء.

وما ذكره دوكنز أكثر إشكاليًا، لأنّه حتى لو سلّم بإمكان قيام هذه التركيبات في العين بوظيفة أخرى غير الإبصار، لكنّ نفس الإبصار لا يتم علميًا إلا بكامل تركيباتها المعقدة غير القابلة للاختزال، ولذا وصف ألفن بلانتجا كلام دوكنز بأنه «مجرد تخمينات»، وعلق عليه: (ليست أي 5% من تركيب العين يمكنها إنتاج 5% من الرؤية، ولا يوجد أيّ جزء بهذا الحجم من تركيب العين يمكنه إنتاج الرؤية استقلاليًا)⁽¹⁵²⁾

وبشيء من التأمل سنرى أن الالتباس الذي وقع فيه الناقدون هو تركيزهم على التركيبات وعملها، والحقيقة أنّ جوهر الفكرة في وظيفة التركيبات لا في نفس التركيبات، لأنّ الوظيفة وهي «الإبصار» ثابتة للإنسان منذ ظهوره على صفحة الأرض، بمقتضى كلّ الأدلة الأحفوريّة والبيولوجية التي خلّت مما يدل على وجود أجيال قديمة من العمى الكلي لدى الناس، وما دامت هذه الوظيفة متعذرة الحصول إلا مع التعقيد غير القابل للاختزال، فالنتيجة أنّ هذا التعقيد سيكون قديمًا بقدم وجود هذا الكائن وهذه الوظيفة، وهذا يعني أنها تراكيب لم تمر بمراحل تطوريّة.

ولذلك وجد في الوسط العلمي من تدفّعه هذه الشواهد للقول بالتطور جزئيًا، أي أنّ التطور حقيقة بالنسبة لبعض التراكيب الحيويّة لا كلها، ولهذا التصور نتيجة بالغة الأهميّة بطبيعة الحال، وهي عدم إمكان تحليل جميع الأشياء بالتطور والارتقاء، وبعد «برايان جودوين»⁽¹⁵³⁾ أحد القائلين بهذا الرأي: (يبدو أن نظرية داروين تعمل على الجوانب الصغيرة من التطور: إذ يمكنها تفسير التنوع والتكيفات التي تحصل لأنواع الحية عندما تسكن في بيئات مختلفة. أما الاختلافات الكبيرة في الشكل بين المخلوقات الحية، والتي تعتبر أساس أنظمة التصنيف الحيوي للمخلوقات، فيبدو أنها تتطلب مبدأ غير الانتخاب الطبيعي الذي يعمل على الاختلافات الصغيرة وهذا المبدأ – أي كان نوعه – هو المسؤول عن ظهور أنواع مختلفة تمامًا من المخلوقات الحية، هذه هي مشكلة الرتب الجديدة في نظرية التطور، وأصل التراكيب الجديدة التي تظهر في المخلوقات الحية، وهي الإشكالية التي كانت وما زالت تمثل أحد أهم الأسئلة في علم الأحياء)⁽¹⁵⁴⁾

التأوهات في المجتمع العلمي

من الأخطاء الشائعة التي قد تكون موردًا للزلل التعاطي مع الرواية العلميّة بشيء من الانقياد والتسليم، فالتنبه لكون الحالة العلميّة حالة بشريّة أمر ضروريّ رغم تمجيدنا لها، ومقتضى بشريّة الحالة العلميّة خضوعها للظواهر العامّة التي تحضر عادة في أي حالة جماعيّة عامّة دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة، كوجود مصالح عامّة أو متفذين متحكمين أو قواعد لما يُسمح قوله وما لا يسمح، ويبدو أنّ علماء الطبيعة والمبشرين منهم على الأخص لا يشكّون في هذه الحقيقة، وإلا لما أمكن لهم أن يصنعوا إبداعًا جديدًا، فالحالة العلميّة في الأخير هي نشاط لأشخاص تربطهم مصالح وغايات وعقائد خاصّة، وهذه المصالح تؤثر – دون شك – في الرواية العلميّة التي يتم تصديرها، فهل كل حقيقة تكتشف يمكن تصديّها وإعلانها بسهولة تامّة ومن دون ضغط؟ من دون مراقبة لكونها منسجمة مع مصالح اقتصاديّة وسياسيّة معيّنة مثلًا؟ وفضلاً عن إنتاج المعرفة نفسها فإنّ إدارة المنجز المعرفي وتوجيهه أيضًا يخضع لإرادات وغايات بشريّة، فهل كلّ نظريّة تحقق الضوابط العلميّة يسمح لها بالانتشار وتسلط حولها الأضواء؟! يبدو لي فعلاً أنّ ثنائيّة نظريّة التطور مع التصميم هي واحدة من أهم نماذج انحياز الحالة العلميّة عن أمانتها الوظيفيّة، وهذا ما سيبيّن مع عرض بعض الشواهد.

محاكم تفتيش الحادّة!

في عام 1987 قدّم مجموعة من الآباء الدينيين في ولاية ويزيانا لائحة اعتراضيّة على القرارات المانعة من تدريس نظريّة الخلق «التي تسمّى الآن نظريّة التصميم الذكي» في المدارس والمعاهد الأكاديميّة، وطلبوا من المحكمة المحليّة إصدار قانون يمنع من تدريس نظريّة التطور إلا إذا صاحبها تدريس نظريّة الخلق، ليترك للطالب حرية الاختيار والترجيح العلمي من دون إملاء ووصاية، ونلاحظ هنا أنّ الحالة الدينيّة متواضعة في مطالبها، فهي لم تطالب حظر تدريس نظريّة التطور كما في قانون «أركنساس» السابق عام 1928، وإنما اكتفت بعدم توجيه العمليّة التعليميّة وتجييرها لمساقات الحادّة، ربما للوعي بما يقره الدستور الأمريكي من قواعد في العلاقة بين الدولة والدين، وأبرزها قاعدتا «حرية الممارسة الدينيّة، عدم تأسيس الدولة للنشاط الديني»، وبما أنّ حظر نظريّة التطور من النشاط العلمي يتقاطع مع قاعدة وجوب أن لا تدعم الدولة أيّ نشاط ديني، لكونها دولة علمانيّة، فقد ارتأوا أنّ الأفضل هو اعتبار منع تدريس نظريّة الخلق بمثابة انتهاك لحرية ممارسة الدين واعتقاده لأنها تناقض سفر التكوين، وقد استجابت المحكمة المحليّة لهذه اللائحة بالفعل، فحكمت بأنه ينبغي تدريس نظريتي الخلق والتطور المتنافستين معًا: (بما يمنع تلقين الطلبة، بل، عوض ذلك، يكونون أحرارًا في الاختيار لأنفسهم، على أساس عرض عادل للأدلة العلمية عن أصل الحياة)⁽¹⁵⁵⁾

ولكنّ المفاجئة أنّ المحكمة الفيدراليّة العليا تدخلت بعد ذلك لتقضي في «قضيّة إدواردز» بعدم دستوريّة القانون الصادر من المحكمة المحليّة، لأنّها عدت نظريّة الخلق مجرد فروض دينيّة لا تقوم على أسس علميّة، وأنّ نظريّة التطور قطعيّة وصحيحة، ومسلمة في الوسط العلمي، ولذلك لا يسمح بعرض نظريّة الخلق أصلًا في المعاهد والمدارس الأكاديميّة وينبغي الاكتفاء حصريًا بتفسير الحياة على أساس نظريّة التطور.⁽¹⁵⁶⁾

وقد شكّلت هذه سابقة قضائيّة، ففي عام 2005 أقيمت دعوى في ولاية بنسلفانيا ضد معاهد علميّة تعتمد مناهج في علم الأحياء تتضمن طرحًا لفكرة «التصميم الذكي»، وتعرف هذه القضية «بقضيّة دوفر»، وقد أثير الادعاء فيها ضد المدارس الأكاديميّة من قبل

الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بالتوافق مع بعض أهالي الطلبة، ونتيجةً لهذه القضية اعتبر القضاء أنّ فكرة التصميم الذكي هي إعادة تسمية لفرضية الخلق القائمة على أسس دينية، والتي ينبغي تجنب المعاهد والمؤسسات العلمية عن التعرض لها.

والغريب فعلاً أنّ البعض لا زال يسكب الدموع على اضطهاد الكنيسة لعلماء الطبيعة الأقدمين كجاليليو وكوبرنيكس وما تعرضوا له من إقصاء إزاء آرائهم العلمية، متجاهلاً أنّ ذلك وإن كان حقاً وصحياً لكثرة ضارب في الماضي، ومتعامياً عمّا يدهم المجتمع العلمي من ملاحظات جديدة مُحمّلة بالأيديولوجية الإلحادية ومنزوعة عن الموضوعية.

حصار إعلامي!

الحقيقة أنّ تصلب المتنفذين في الإصغاء لآراء جديدة من أوضاع معيقات التقدم ومظاهر التخلف أو الجمود، والاعتقاد السائد لدى بعض الحدائين أنّ المنهج العلمي ينسجم مع مبادئ حرّية الإنسان في الاكتشاف جدير بالتأمل مع ملاحظة الوقائع التي تدعونا للشك فيه، فهناك كما في معظم الأماكن الأخرى ملاحظة للأصوات الناقدة للرأي المشهور.

وفي عام 2004 نُشرت دراسة علمية لـ «ستيفن ماير»⁽¹⁵⁷⁾ في مجلة علمية تابعة لمعهد سميثسونيان الشهير بواشنطن، تناولت الدراسة مناقشة لنظرية التطور وعرضاً لفكرة التصميم الذكي، وقد أدى نشر تلك المقالة إلى غضب عارم في المجتمع العلمي المتطرف لصالح نظرية التطور، إلى حدّ أنّه تمّت معاقبة محرر المجلة «ريتشارد سيرنبرغ» بطرده من موقعه وإنهاء خدماته العملية في المجلة لموافقته على هذا النشر.

وقد تعرضت البروفيسورة كارولين كوكر لموقف مشابه، فبعد أن تعرّضت في إحدى محاضراتها الأكاديمية بجامعة جورج ميسون لنظرية التصميم الذكي كأطروحة علمية محتملة، تمّ وضعها على القائمة السوداء في الأكاديميات الأميركية، فتمّ فصلها من موقعها في الجامعة، كما تمّ حظر توظيفها في أي منصب علمي مرموق آخر، مما حدى بها لاستخدام تعبيرات نارية تجاه المؤسسات الأكاديمية الأميركية في صحيفة واشنطن بوست، حيث قالت: (المؤسسات الأكاديمية السائدة ترتكب الغش، وتخفي أفكارها الإلحادية في زي العلم، وتلاحق منتقدي التطور لتدمرهم)⁽¹⁵⁸⁾

ولكن، على الرغم من وجود هذه الظروف الصاعقة، حاول أصحاب نظرية التصميم الذكي أن يشكّلوا نوعاً من التكتل، ليستطيعوا التعبير بواسطته عن آرائهم، وإن كانوا يفتقدون الوصول لمراكز القوّة والتأثير الحقيقي في المجتمع العلمي، فمن خلال معهد معهد دبسكفري المعروف بمناصرة لطرح التصميم الذكي نُشر في عام 2001 مقال بعنوان «المعارضة العلمية للداروينية»، احتوى على توقيع العلماء الذين يعبرون عن شكوكهم تجاه فروض نظرية التطور وقدرتها على تفسير تعقيد الحياة، وفي عام 2019 بلغ عدد الموقعين أكثر من 1000 عالم.⁽¹⁵⁹⁾

ومع ملاحظة هذه الظروف التي تكتنف بالحالة العلمية لنظرية التطور والثغرات التي تتخللها، لن أقول أننا سنحكم جازمين بطلانها، وإنّما أقول أننا لا يمكن أن نجزم بصحة فروضها جميعاً على نحو تفصيلي على الأقل، فلو قبلنا التطور كسردية كبرى مثلاً، فهذا لا يمنع أن نقول بإمكانية المناقشة في فروض هذا التطور وآلياته ودلالاته بل ومساحته، فهل هو حالة تامّة مستقلة في تفسير نشوء الحياة، أم هو تعبير عن سلسلة منسجمة من القوانين المتفاعلة التي تساهم في ذلك؟.

دلالات التطور

هناك انطباع سائد بأنّ نظرية التطور ملازمة لإنكار وجود الإله، فالمؤمنون يفرحون بكلّ تضعيف لنظرية التطور، والملحدون يتغنون بها وكأنها آيات الإلحاد، ولكنّ هذه الثنائية بحاجة إلى مزيد من التأمل، فلماذا لا نحتمل أنّ نظرية التطور – لو كانت صحيحة – يُمكن أن تحكي طريقة نسق بها الله خلق الإنسان؟! وهذا يفتح الباب أمام السؤال الجدّي عمّا إذا كان هناك تعارض صريح بين الإيمان والتطور!

أكثر ما وجدته في كلمات الملحدين عند استعراضهم لنظرية التطور هو التعريض بتناقضها مع حكايات الكتب السماوية كالكتاب المقدس والقرآن الكريم في رواية أحداث خلق الإنسان، فهذه الكتب السماوية تشرح خلق الإنسان عبر أسطورة بدائية وهي أنّ الله خلق آدم من التراب بشكل مباشر، وقد أثبت العلم خطأً هذه الأسطورة لأنّ الإنسان لم يوجد بشكل مفاجئ وإنّما مرّ بمراحل وتفاعلات تكوينية استمرت ملايين السنين، لذلك؛ فهذه رواية غير صحيحة.

ومن الواضح أنّ هذه الملاحظة لا يصلّ مداها إلى ما يريده الملحد من إنكار وجود الله، لأنّ أقصى ما تطاله هو الإشكال على رواية الكتب السماوية وصدق رسالتها، ولذا فمجال البحث متأخّر رتبةً عن تكوين فناعة بوجود الله أو عدمه، فلو أننا قلنا بإثبات وجود الله فعند ذلك يكون البحث في صدق هذه الكتب المنسوبة إليه أو كذبها، ولو قلنا بإنكار وجود الله فلا نحتاج إلى هذا البحث من الأصل، لأنّ إنكار وجود الله يتضمن إنكار الكتب الدينية.

ثمّ إنه لا ينبغي أن يفوتنا البحث عمّا إذا كان هناك – فعلاً – تناقض بين قصّة آدم بالسردية الأدبائية وبين نظرية التطور، فهل هما قصّتان متكادبتان؟! ألا يمكن أن تحكي قصة آدم مرحلة وجودية خاصة من دون أن تكون تفسيراً شمولياً لمشهد بداية الخلق؟ ولذا نجد أن الفيلسوف السيد محمد حسين الطباطبائي⁽¹⁶⁰⁾ وتلميذه الفيلسوف الشهيد مطهري⁽¹⁶¹⁾ انتهى بهما البحث إلى عدم استقرار أيّ معارضة للنسق القرآني مع نظرية التطور الداروينية لو ثبتت، فالآيات ليس فيها ما يثبت بشكل جزمي أنّ آدم أول كائن حيّ على وجه الأرض، كما أنّهما – من جهة أخرى – لم يجعلوا نظرية التطور أساساً لفهم الآيات لأنه لا داعي لذلك ما دامت أصل المعارضة غير موجودة.

والتراماً ممّا بالعهد الذي قطعناه في مقدّمة هذا البحث، ورغم إطلالتنا على زوايا المشهد العلميّ وما يتخلله من تجاذبات حادة إزاء نظرية التطور، إلا أننا لنسوّغ أن نقم أنفسنا كمقيمين للنظريات العلمية، لسبب واضح وبسيط وهو أننا غير مختصين، ولذلك سأفضّل التعامل مع نظرية التطور كأصل موضوعي، – ولو على سبيل الجدل –، فما يعنيني هنا بالتحديد هو الإلفات إلى حقيقة أن لا تضارب صارح بين الإيمان بالإله ونظرية التطور معاً، ويمكن أن ندعم هذه الفكرة من منطلقات عديدة..

المنطلق الأول: محدودية تاريخ التطور

ينبغي أن يضع الباحث في حساباته أن النسخة العلمية لنظرية التطور غير اختزالية بما يكفي للتجح بإنكار الله، فهي لانزعم أنها تفسير لكل شيء، وبعبارة أخرى فإن نظرية التطور تقدم أطروحة لتطور مراحل الحياة لكنها صامتة تماما عن سؤال كيفية إيجاد الحياة، ولذلك يعبر أعلامها دوماً عن أن نقطة البدء فيها هي «مابعد الخليّة الأولى» لا ما قبلها، ولا بأس أن نستعير عبارات أحد أهم المدافعين عن داروين في العالم العربي وهو «اسماعيل مطهر»⁽¹⁶²⁾ وهو الذي اشتغل بترجمة كتاب «أصل الأنواع» وتحقيقه، حيث كتب في المقدمة: (ومضى زمن طويل قبل أن يدرك سواد الناس أن داروين إنما تناول ببحثه العلمي عصر ما بعد الخليّة التي هي أساس الحياة بكل صورها، ولكنه لم يعرض للبحث في عصر ما قبل الخليّة ليعرف كيف نشأت الحياة في تلك الصورة البسيطة، ومن أين هبط ذلك السر الرهيب، سر الحياة الذي جعل من المادة الجامدة كائنا حيا. إذن، فلم يكن انتصار المادية انتصاراً حاسماً قاطعاً، بل كان انتصاراً جزئياً، لم يتجاوز أنه تفسير لبعض وجوه من خصائص المادة تناول داروين منه ناحية المادة الحية؛ أي المادة بعد أن دبت فيها الحياة، ولكن ما الحياة؟ ذلك هو سر الأسرار!)⁽¹⁶³⁾

وحقيقة قصور نظرية التطور عن إدراك ما كان على مسرح الوجود قبل الخليّة الأولى زاد من حيرة علماء الطبيعة وأدخلهم في متاهة، من جهة أن هذه الخليّة الأولى، ألم تكن تحتاج إلى غذاء وظروف مناخية وطبيعية تساعد على البقاء؟! وعلى فرضية التطور القائمة على أن كل حدث مؤثر في عالم الحياة لا يحصل بشكل مباشر وإنما يمرّ بسلسلة مليونية من السنوات، فكيف تأتي لتلك الخليّة الحية اليتيمة والوحيدة أن تستجمع مقومات البقاء في المراحل الأولى من سلسلة الحياة؟

فهل كانت لدى الكائن الحي الأول – أجهزة عضوية دقيقة ومتقدمة – تكفي لإنتاج غذاء ذاتي لكي يستمرّ في البقاء؟ ثمّ كيف وُجدت هذه الأجهزة؟ كتب «عرفان يلزمان»⁽¹⁶⁴⁾: (تري نظرية التغذية الذاتية أنه كان لزاماً على أول كائن حي أن يضطر لتصنيع غذائه بكفاءة أن يكون لديه أنزيمات متطورة وآليات تركيب متقدمة، ولكن العائق الذي وقف هذه الفرضية ظل تعقيد التفاعلات الكيميائية الحيوية المرتبطة بتكوين والسبب في ذلك أنه من المستبعد أن يتكون نظام يتطلب تعطيلاً وبرنامجاً متاليين فجأة تلقاء نفسه، ويكون مستعداً في الحال لإنتاج جزيئات مركبة مثل الكربوهيدرات البسيطة من الطاقة الشمسية أو يكون قادراً على تحويلها في الحال إلى جزيئات أكبر مثل النشا السيليلوز)⁽¹⁶⁵⁾.

والمدهش أننا نجد حقا في كلمات بعض المشاهير من العلماء ك «هرمان مولر»⁽¹⁶⁶⁾ ما هو صريح في أن نظرية التطور لاتعدو كونها نظرية وصفيّة، لا تنطوي على تحليل وتفسير حقيقي لظاهرة خلق الحياة، فنظرية التطور بحسب مولر: (لا تهدف إلى تفسير منشأ هذه الأجزاء، ولا تركيبها، ولا ظهور شيء جديد. ففي عالم الداروينية الحديثة يُعتبر الانتخاب الطبيعي هو العامل المحرك للتغير في التركيب، وهو أيضاً الذي يفسر تغير الأجزاء وفقدانها. إلا أن الانتخاب لا يتمتع بأي قدرة خلاقية، ولكن كل ما يفعله أنه يحمو ما هو موجود أو يُقي عليه. ومن ثم فالجوانب التوليدية والتنظيمية في تطور التركيب لا وجود لها في نظرية التطور)⁽¹⁶⁷⁾

وهذه الملاحظة تجعل نظرية التطور فاصرة عن فك الشفرة المحيرة التي هي لبّ الدليل على وجود خالق لنا، وهي كيف انتقلت المادة من شكلها الأصمّ إلى واقعها الحيّ فكّوت أشكالاً وألواناً متعاقبة من التطور والتنامي؟⁽¹⁶⁸⁾

المنطلق الثاني: محدودية نطاق التطور

هناك مشكلة عويصة تكتنف بمن يريد أن يجعل نظرية التطور مستندا لإلحاده، وهي أن نظرية التطور إضافةً لمحدوديتها تاريخياً فهي محدودة نطاقياً كذلك، بمعنى أنها لا زالت عاجزة عن تفسير بعض الطواهر، ومن أهم الطواهر التي لا يمكن لنظرية التطور أن تفسرها من جهة، ومن جهة أخرى تعد من أهم الأدلة على وجود خالق، هي ظاهرة «الوعي البشري» فالإنسان في الواقع نوع متفوق، لكنهم بيولوجياً نوع عادي يعيش بخلايا حيوانية، فلماذا قُدّر للبشر بالذات أن يعيشوا حالة استثنائية من الوعي وينعكس ذلك على نشاطاتهم في بناء الحضارة وتشديد المدنية والصناعة والزراعة والتجارة دون أيّ فرد آخر؟ وإذا كانت المؤشرات البيولوجية لا تميّزنا كثيراً – حتى أن التجارب التي تُجرى على القران تكون صالحة لنا عادةً – فهل هذا يعني أن شيئاً غير مادّي هو الذي يميّزنا؟! كأن يكون هذا الشيء مؤنثراً على مدد الغيب أو اصطفاً من الله كما يشير النص القرآني في مواضع متعددة: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.. وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالتَّحْرُورَ فَتَنَّاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.. وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً!}، {وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ.. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ!}

جاء في ملخص جامعة أوكسفورد المترجم في عام 2022 عن نظرية التطور: (ثمة مشكلتان كبيرتان ظلتا بغير حلّ إلى الآن تكتنفان مفهوم التطور، وهما تقعان على أقصى طرفي النقيض فيما يخص تاريخ الحياة، وهاتان المشكلتان هما أصل الملامح الأساسية للخلايا الحية، وأصل الوعي البشري. وإن هذين الأمرين يمثلان جدتين منفردتين في تاريخ الحياة، وتفردهما هذا يعني أننا لا نستطيع المقارنة بين الأنواع الحية بحيث نخرج باستنتاجات موثوق فيها بشأن الكيفية التي حدث بها كلا الأمرين...، ونحن لا نملك إزاء مسألة تطور الوعي البشري سوى التخمين!)⁽¹⁶⁹⁾

وتظهر محدودية نطاقات افتراض التطور كلما تصوّرنا محدودية وضالة الحياة بالنسبة إلى عموم الوجود، فلو افترضنا جدلاً أن التطور كقيل بتفسير ظاهرة الحياة كسلسلة عمليات تطورية عشوائية. فكيف سيتطيع التطور تفسير «الوجود» بما هو أعمّ من الحياة، كالكواكب والنجوم والمجرات السماوية التي تحكي دقة غير متناهية وهي أوسع رقعةً من الحياة، فما هو حجم قصة الحياة بكاملها على نقطة من غير الكون – الأرض – إزاء لهذا النظام الدقيق الذي يحكم كل ذرة من ذرات الوجود الطبيعي، فإذا كانت الحياة قد ظهرت في جزء محدود جداً من الكون قبل 3.7 مليار سنة فإنّ هذا الكون الفسيح الدقيق كان موجوداً بنظامه المتقن قبل 13.7 مليار سنة كما ثبتت الاكتشافات العلمية، وبهذا البيان يتضح أنّ نظرية التطور قليلة الحيلة في تفسير مشهد الوجود، فكل اشتغالها ليس بسوى لحظة عابرة من لحظاته، فلا يحق لها بعد ذلك أن تعطي حكماً شمولياً!

وبتعبيرات «كريس إمبي»⁽¹⁷⁰⁾ البديعة: (لفهم هذا المسار الزمني الهائل، دعونا نقلص أو نسرع من تقدم عجلة تاريخ الكون وفق معامل قيمته 13.7 مليار عام. لتتخيل أن الساعة الآن تدق معلنة انتصاف الليل وبداية عام جديد، وأن الانفجار العظيم وقع في الوقت نفسه العام الماضي. وفق هذا المقياس يكون كوكب الأرض قد تكون في منتصف شهر سبتمبر، وظهرت الخلايا ذات النوى لأول مرة في

منتصف شهر نوفمبر، وبدأت الحيوانات في استعمار اليابسة في الحادي والعشرين من ديسمبر، وتطور أول أفراد النوع البشري قبل ساعة ونصف فقط من منتصف ليلة الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر، وظهر عصر النهضة بعظمته والثورتان الصناعية والزراعية وعصر الفضاء وتكنولوجيا الكمبيوتر جميعًا في الثانية الأخيرة من هذا العام الكوني. وفق هذا المقياس لا تشغل حياة أي إنسان أكثر من عُشْرٍ ثانيٍّ واحدةٍ، ولو كان الكون موجودًا لمدة عام، لما تجاوزت كل أماننا الشخصية وأحلامنا وطموحاتنا طرفة عين. وكما يذكرنا فيلم (هي فرقة سبانيال تاب) فمن المرجح أننا نعطي أنفسنا أهمية أكبر بكثير مما ينبغي⁽¹⁷¹⁾⁽¹⁷²⁾.

المنطلق الثالث: عقيدة داروين

هل أحسنّ داروين يومًا أنه سيكون عدوًّا لله؟ لا أعتقد ذلك، بصّر كثير من الناس – علماء وغيرهم – على جعل التطوّر أعدى أعداء الله، لكنّ الأمر يحتاج إلى مزيد تأمل، فأنا لن أكون مبالغًا لأقول أنّ داروين كان «عارفًا بالله»، لكن يمكن أن ندعي باطمئنان أنّ داروين لم يكن يرى أية ملازمة بين نظريته وبين التنكر لوجود الإله.

إذا تصفّحت عبارات داروين، وخصوصًا ما كان يكتبه من رسائل لتلامذته وزملائه، فإنك ستجد فيها بوضوح عبارات صوفيّة، وفي تقليدك لصفحات «أصل الأنواع» قد تجد من العبارات ما يوحى بتمكننا من تفسير الحياة من دون تدخل مباشر وواضح لأي قوة غيبية، وقد يُستشَمُّ أنّ هنا تعارض مستقرّ بين النوعين من العبارات، ويمكن أن تكون كلّ واحدة من العبارات تحكي مرحلة من حيرة داروين الوجوديّة، أو «لأدريته» كما يقيم بعض الباحثين.

وهذه الحيرة تظهر واضحة في كلمات داروين في الحوار الذي دار بينه وبين دوغلاس كامبل، قبل عام واحد من وفاة داروين أي في عام 1881، يقول «دوغلاس كامبل»⁽¹⁷³⁾: (قلت للسيد داروين تعليقًا على أعماله المذهلة حول تخصيب زهرة الأوركيد وعلى ملاحظاته الدقيقة للعديد من مظاهر التصميم البديعة في الطبيعة، قلتُ له: يستحيل النظر هذه الطواهر دون الاعتقاد بأنها ناتجة عن عقل مدبّر. لن أنسى ردّة فعل السيد داروين كلامي. نظر في عيني باهتمام، وقال: في حقيقة الأمر هذه الفكرة تستولي على ذهني بقوة أحيانًا – وهو يحزّك رأسه -: وفي أحيان أخرى أنسى هذه الفكرة تمامًا)⁽¹⁷⁴⁾

وقد قام عباس محمود العقّاد بجهد متفوق في جمع رسائل داروين في مسألة الإله ونظريّة التطوّر، وبالجمع بين هذه الرسائل يُمكن أن نستخلص أنّ داروين كانت له نزعة واضحة للإيمان بالإله لكنّه كان شكّاكًا في الإله الذي تصفه الأديان، فقد: (سأله طالب ألماني سنة 1879): هل يتفق مذهب التطوّر والإيمان بوجود الله؟! فأوصى أحد أعوانه أن يكتب إليه ما فحواه أنهما يتفقان، ولكن الناس يختلفون في فهم المقصود بالإله.

وعاد الطالب يسأل ويطلب التفصيل، فكتب إليه داروين نفسه في هذه المرة وقال له: إنه لا يرى دليلًا على الوحي، وإن الإيمان بالبعث متروك لكل من يشاء أن يتخذ له فيه معتقدًا بين الاحتمالات المتضاربة)⁽¹⁷⁵⁾

ويتأكّد ذلك بتعبير داروين الذي كتبه بنفسه في رسالته إلى ألكساندر جراهام⁽¹⁷⁶⁾ عندما أُلّف الأخير كتاب «عقيدة العلم» وذلك في عام 1881 – العام الأخير من حياة داروين، وهو نفس العام الذي جرى فيه حوار مع دوغلاس كامبل -: (إنك عبرت عن عقيدتي الباطنة... إن الكون لم ينجم عن مصادفة؛ ثم عاد ينسأل: ما قيمة هذه العقيدة في إثبات حقيقتها)⁽¹⁷⁷⁾

ومن خلال مجموع البحث المتقدم في دلائل وأجواء ومناخ نظريّة التطوّر فإننا نخلص إلى النتيجة القائلة بأنّ هذه النظريّة إذا جرّدها من الهالة الإعلاميّة المسيغة عليها واستغلال الإلحاديين البشع لها ولأصحابها، فإنها لا تشكل عنرة تقف أمام الأدلة والبراهين الداعمة لوجود الإله. بل إنه يمكن استعمال مخرجات هذه النظريّة لدعم بعض القواعد الإيمانيّة كفكرة أن «الإله واحد»، لأنّ التطوّر يعطينا مشهدًا عن خلق الحياة بطريقة وأليّة واحدة وهذا يدعم أو برّجح احتمال أنّ الحياة بكلّها صادرة عن مصدر واحد لا متعدد، وحيث أنّ البحث منصب على خصوص مسألة الإله، لا على صفاته أو على صدق القواعد الإيمانيّة الدينية المتعلقة بتصوره، فإننا نجد الكفاية في ما خلصنا إليه من أنّ النظريّة لا عداء لها مع محض فكرة الإيمان بالخالق.

رحلة الحيرة الأخلاقية مع السفينة البريطانية «مونيوت»

في أواخر القرن التاسع عشر، كانت محكمة الجنايات البريطانية مشغولة بنظر أحد أكثر القضايا جدلية في التاريخ، وهي قضية «اليخت مونيوت – Mignonette»، الذي غرق في جنوب المحيط الأطلسي أثناء رحلته من بريطانيا إلى أستراليا.

كان اليخت سيء الحظ يحمل على متنه أربعة رجال، ثلاثة منهم يعدون من الشخصيات المتميزة، والشخص الرابع كان غلام السفينة الخادم «باركر»، وهو غلام يتيم وغير متزوج، لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره. اضطر الأربعة إلى النجاة بأنفسهم باللجوء إلى قارب نجاة صغير بعد اصطدام اليخت بموجة عارمة، الخبر السيء أنّ قارب النجاة لم يكن مزودا بشيء من الطعام سوى علبتين من السبانخ. اضطروا للسمود عن أكل السبانخ ثلاثة أيام، ثم تناولوا إحدى العلبتين، وفي اليوم التالي لاح لهم شيء من الأمل حيث اصطادوا سلحفاة صغيرة وتناولوا معها غلبة السبانخ الأخرى، وإذا كان صحيحاً أنّ السبانخ له فوائد في تقوية الإنسان فليس إلى درجة أن يبقى حيّاً في المحيط الأطلسي دون أيّ غذاء، فالذي حصل فعلاً، أنهم لم يتناولوا شيئاً بعد ذلك لمدة ثمانية أيام، وفي اليوم التاسع وجدوا غلام السفينة «باركر» مستلقياً ومنهكاً، إذ أنه لم يستمع إلى نصيحة بقية أفراد السفينة الذين نصحوه بعدم الشرب من ماء البحر، يبدو أنّ باركر يصارع أنفاسه الأخيرة!

للحظة تقدم أحدهم بمقترح، وهو الاقتراح، لقد اعتقدوا في تلك اللحظة أنّه ينبغي لواحد منهم أن يكون كبش فداء ليبقى البقية أحياء، لكن هل يمكن أن يستساع هذا الاقتراح على الصعيد الأخلاقي؟! فأي قرعة هذه التي تبيح لنا أن نطعن بشراً بسكين لكي نشرب من دمه المسفوح ونأكل من لحمه لنحافظ على حياتنا؟!، رفض أحد الثلاثة هذا المقترح بينما كان باركر مستلقياً يصارع بين الحياة والوفاة بعيداً عن أجواء النقاش.

في اليوم التالي، اقترح أحد الثلاثة النبلاء، أن يتم الإجهاز على باركر، متذرعاً بأنه يشارف على الموت واقعاً وفي الحال، وأنّ فقده مصيبة غير جسيمة إذ ليس له أولاد أو زوجة أو أم تلهب قلوبهم لفقده، خلافاً لكل واحد منهم حيث أنّ فقده لا يساوي إتلاف حياة واحدة فحسب، لأنّ كل واحد منهم مسؤول عن حياة أسرة بأكملها ستضيق بذها، كما أنّ ترك قتله سيؤدي إلى نتيجة أكثر فظاعة، ففقدان إنسان واحد وإن كان فظيماً، لكنه ليس بفظاعة فقدان أربعة أفراد. قيل واحد منهم بهذا المقترح بينما امتنع الآخر، لكنه لم يعارض أو يمانع من ذلك، كما أنه شارك بعد إتمام المهمة بتناول ما بقي من لحم «باركر»!

وفي اليوم الرابع والعشرين عثرت سفينة ألمانية على الركاب الثلاثة ومعهم بعض من شحم ولحم ودماء باركر التي كانوا يتغذون عليها، وعند إحالة القضية للمحكمة، اشتعل جدال عام، لا زال صدها مستمراً إلى اليوم لدى كل من فلاسفة الأخلاق من جهة، وأساتذة كليات الحقوق والقانون من جهة أخرى.. فهل كان مبرراً أخلاقياً بالنسبة لطاقم السفينة أن يُجهزوا على باركر؟! وإذا كان فعلهم غير مبرر من الناحية الأخلاقية، فهل يجب أن يحاسبوا الآن بثمة القتل فيُجرى عليهم حكم الإعدام؟!!

ومرد هذا الجدل، إلى أننا تارة ما نُقيم الفعل بما هو، أي الفعل في ذاته، ولاشك أننا عندما ننظر إلى فعل قتل باركر بهذا الأسلوب لن نتردد في إدانته أخلاقياً، ولكننا تارة أخرى نقيم الفعل بمنظار آخر، وهو بالنتيجة والثمرة المترتبة عليه، فإذا كان هذا هو المنظار الذي نطل به على الحدث، فلربما نستسيغ أو على الأقل نرى قتل باركر خياراً أملهته الضرورة، لحفظ ثلاثة نفوس يترتب على فقدها ضرر يبلغ في قبال نفس واحدة لا يترتب على فقدها ضرر يبلغ. ومهما كان فمرجع الحيرة، إلى أنّ السلوك الواحد، إذا كان يمثل في ذاته طابعا مناقضاً لما يمثله في نتيجته، فكيف ينبغي لنا تقييمه وتصنيفه من الناحية الأخلاقية؟!!

سأحاول ضرب مثال آخر لتقريب الفكرة، افترض أنك تقف في إحدى محطات القطارات السريعة تحت الأرض، وأنت تنظر إلى خمسة أشخاص وقفوا دون قصد في طريق سكة القطار، ولنفترض أنك كنت بالقرب من أحدهم بينما كان الأربعة الآخرون في نقطة بعيدة أمامكم، إنك تعلم في تلك اللحظة، أنك تتمكن من إنقاذ رجل واحد – الذي يقف قريباً منك ويمسك إليك يده في آخر لحظة – وتعلم أيضاً أنك لو تركت إنقاذ هذا الرجل فإنّ القطار سيتوقف بمجرد دهسه، وسينجو البقية، فأنت الآن مخير بين إنقاذ الرجل، أو تركه للدهس لحماية أربعة رجال.. – شخصياً سألت بعض أصدقائي عن ردة فعلهم في مثل هكذا موقف، معظمهم قالوا أنهم سيفصلون التضحية بشخص واحد على التضحية بأربعة أشخاص، وقد يبدو هذا منطقياً – لكن دعونا نغيّر تصوّر السيناريو، لنرى كيف يكون الموقف!

لنفترض أنك تقف إلى جانب أحد الأشخاص في موقع سليم، في محطة القطارات، بينما تراقب في نهاية السكة أربعة أشخاص يقفون في موقع خاطئ بحيث أنّ القطار متجه لدهسهم، لكنك تستطيع أن تُنقذهم عبر إلقاء الشخص الواقف إلى جانبك، إذ أنّ القطار بمجرد الاصطدام به سيتوقف عن الحركة، ماهو رأيك في هذه الفكرة?... أظنّ أنّ إلقاء شخص للموت خطة غير سائغة لديك! وهذا يبدو كذلك منطقياً.

لكن، لاحظ لوهلة معي، أننا في الموقف الأول استسغنا أن نمارس عملاً قبيحاً في ذاته – عدم إنقاذ شخص تتمكن من إنقاذه من الموت – لأجل تحصيل نتيجة وغاية أفضل وهي نجاة أربعة أشخاص، وفي الموقف الثاني لم نطبق نفس المعيار، فنحن لم نستسغ أن نقوم بعمل قبيح – إلقاء شخص في طريق السكة – لتحصيل الغاية الأفضل، فهل هذه إزدواجية؟! (178).

الحقيقة أنّ هذه المواقف الافتراضية ماهي إلا أمثلة تقريبية لسؤال فلسفيّ شديد الإلحاح، وعظيم التأثير في الضمير والمجتمع والنظام البشريّ، وهو السؤال عن المعيار والمائز الدقيق الذي به نستطيع تصنيف الأفعال إلى أفعال أخلاقية وغير أخلاقية، فماهي كلمة السر في الأخلاقي وغير الأخلاقي وكيف لنا أن نملك هذه الشفرة التي تبتني عليها تفاعلاتنا وانفعالاتنا ومواقفنا تجاه الأشياء?..

الحقيقة أنّ هذا السؤال هو حجر الأساس لما يُعرف الآن بعلم «فلسفة الأخلاق»، ولا أريد أن أخوض هنا في هذا المجال كثيراً لأنه يخرج عن موضوع البحث، ولكن ما يعنيني فعلاً، هو أننا نتفق، مهما كان موقفنا أو خيارنا في كل حادثة من الحوادث المتقدمة، سواء قررنا قتل باركر أو الموت جميعاً، سواء أنقذنا المستغيث أم تركنا الأقدار تفعل ما تشاء، وسواء ألقينا بالشخص الواقف إلى جانبنا أم تركنا القطار يدهس الأربعة المتبقين، مهما كان خيارنا في تلك المواقف أو مواقف محيرة أخرى، نحن نتفق أنّ هناك جانباً واحداً من المواقف يمثل، «الموقف الصحيح والموقف الأخلاقي»، وأبنا يجب أن نحث عن هذا الفعل أو ذاك، ونرجح بينهما لتتخذ موقفاً عملياً

ينسجم مع المبادئ، ولا يخاطر بالنال للحظة أنه لافرق بين اتخاذنا لهذا الموقف أو ذاك، أو أنّ كلا الخيارين يمثلان موقفاً سليماً وصحيحاً، ولو كان هذا الشعور يخاطرنا، لما تملكنا أيّ حيرة أو اضطراب كذلك التي نغمرنا أثناء التفكير في هذه الصور المتخيّلة فضلاً عن معاشيتها.

هذا يدلّ، بشكل واضح، أننا نبحث عن شيء واقعي، له حقيقة موضوعية معينة، ونحن نريد من سلوكنا العملي أن يلامس ويطابق تلك الحقيقة الموضوعية ولا يتعداها، فالإنسان هو الكائن الذي يجد في نفسه مطالبته حثيثة لامتنال الموقف الأخلاقي، وهذا يدلّ أنّ الموقف الأخلاقي غاية بالنسبة للإنسان وليس منتجاً طبيعياً أفرزته تجاربه المتراكمة بخيرها وشرّها كما تروج مدرسة البراجماتية الأخلاقية، وبعبارة أخرى، إنّ وعينا بوجود موقف أخلاقي محدد وواحد في كل قضية، وبحثنا عن تحديد ذلك الموقف بدقة وملائمة أفعالنا له هو مؤشّر ودليل سلس على وجود قانون حقيقيّ مقدسٍ يصفّ الأفعال البشرية.

لأجل ذلك، نجد أنّ الذين يرتكبون أشنع الجرائم بحق البشر، وتكون جرائمهم واضحة بحيث لا يمكن أن نحتمل فيها الحيرة أو الالتباس في الموقف تجاهها، كجزائر العصر «بنيامين التين ياهو» مثلاً، نجد أنّ هؤلاء، رغم ارتكابهم لتلك الجرائم البشعة، إلا أنهم يحاولون إظهار أنفسهم أمام العالم الإنساني، بأنهم يقومون بأفعال أخلاقية، إن لم تكن من مكارم ومعالي الأخلاق! فما هو السر العجيب في ذلك، لماذا يا ترى، مجرّم بجاجة تنبأه، ليجرؤ على التخلي عن إضفاء الطابع الأخلاقي على أفعاله؟

إنّ هذه الظاهرة تؤشّر لنا كم واضح أنّ البشرية مؤسسة على قاعدة فطرية مفادها ضرورة وجود قانون أخلاقي مقدس غير قابل للانتهاك، بحيث أنّ أعنى مجرمي التاريخ لم يجدوا بداً من التعامل مع هذه القاعدة كأمر واقعي، فأصبح أكثر الناس إجراءً أكثرهم إلقاء للمواعظ في الحريات والحقوق والقيم الإنسانية في منصات العالم الكبرى. وهكذا دواليك...

ما يهّمنا أن نبحثه الآن بعيداً عن هذا الاستغلال المقرف للمجرمين، هو: ماهي الدلالات الفلسفية لفكرة وجود قانون أخلاقي يندفع الإنسان لتطبيقه بالقواعد الفطرية؟ وهل يمكن تصوّر وجود هكذا قانون إلا بوجود غائبة معينة للحياة البشرية؟ إنّ انسجام الإنسان وقاعدته الفطرية مع القانون الأخلاقي ألا يحكي عن وجود صلة حقيقية للإنسان بجانب غير مادي من الحياة؟ وهذا الجانب غير المادي ألا يصل في نهاية الطريق إلى الله؟، إذ أنه يحكي عن كون الإنسان «مكلفاً» بنوع خاص من السلوك في مواقفه وانطلاقاته ونشاطه؟

السجال في البرهان الأخلاقي على وجود الله

نسب الباحث الإيراني «مصطفى ملكيان» (179) إطلاق مقولة البرهان الأخلاقي إلى الفيلسوف إيمانويل كانت (180)، وذلك يتناسق مع الفكرة الأصلية لكانت في انتقاد فكرة الاعتماد المطلق على العقل، فمن قال أنّ العقل هو الكاشف لجميع الحقائق؟، فنمّة جوانب – فليبية وسلوكية – تكشف للإنسان حقائق كئيبة دون الحاجة لإرهاق عقلي (181)، ويبدو أنّ فولتير (182) كان يعبر عن نفس هذا الاتجاه حين قال: (لو لم يكن هناك إله لاختنتي زوجتي وسرقني خادمي) (183) أي أنّ الإيمان بالله يوفّر أساساً يدفع الإنسان للالتزام الأخلاقي.

ولعلّ أهم من نظّر لفكرة القانون الأخلاقي هو الفيلسوف «سي أس لويس» (184) وذلك في محاضراته التي بثتها هيئة الإذاعة البريطانية خلال فترة الحرب العالمية الأولى، والتي تناولت الإيمان المسيحي، وأخرجت فيما بعد تحت عنوان «المسيحية المجردة»، وفي هذا الكتاب بصّح سي أس لويس من واقع المعاينة أنّ المصلحة أو الغريزة أو العرف البشري لا يمكن أن يكون معياراً لتمييز السلوك الأخلاقي عن غيره، ولابد من وجود فصيلٍ كليّ متعالٍ عن الذات الإنسانية، لأنّ الذات الإنسانية تعيش من التناقض مالا يجعلها تستقرّ على أي أساس مؤخّذ، وبالتالي لن يكون هناك أي معنى للحديث عن النظام الأخلاقي: (إذا كان ممكناً أن تكون مفاهيمك الخلقية أصح، ومفاهيم النازيين الخلقية أقل صحة، فلا بد من وجود شيء ما، نظام خلقي من نوع ما، حتى تقارن صحتهما به. فالسبب الذي من أجله يمكن أن تكون فكرتك عن نيويورك أصح أو أقل صحة من فكرتي عنها إنما هو وجود نيويورك في مكان فعلي، قائمة بمعزل عما يفكر فيه كلانا تماماً) (185)

وبهذه الطريقة، يعتبر سي أس لويس أنّ البرهان الأخلاقي يعرّف الله بصورة أدق من المعرفة الإجمالية التي يعرّفها بها برهان النظم والتصميم الذكي، لأنّ البرهان الأخلاقي لا يكشف لنا فقط عن وجود الله أو بعض صفاته وإنما يكشف لنا عن النظام والسلوك الذي يحبه الله ويرشده إليه: (فأنت تستنتج عن الله من القانون الخلقي أكثر مما تستنتج عنه من الكون عموماً، تماماً كما تكتشف عن إنسان ما بالإصغاء إلى حديثه أكثر ما تكتشفه عنه بالنظر إلى بيت بناه. والآن، من هذه البينة نستنتج أنّ الكائن في ما وراء الكون معني على نحو شديد بالسلوك الصائب: بالعدل والإنصاف واللا أنانية والشجاعة والأمانة والاستقامة والصدق. ومن هذه الناحية، ينبغي لنا أن نقبل التوصيف الذي تفيدنا به المسيحية وبعض الأديان الأخرى من أنّ الله «صالح») (186).

مراوغات دوكنز

من الواضح أنّ الطريق للاعتقاد بوجود حقيقة غير مادية مع الالتزام بالإلحاد مسدود، وبذلك تنهار كامل النظرية الأخلاقية ولا يعود لها أساس، ولذلك يقع الكتاب والمفكرون الملاحدة في إحراج شديد من السؤال الأخلاقي، إذ ليس جميعهم يملك جرأة الاعتراف المبتذلة التي يملكها دوكنز حيث بصّح في حواراته أنه من الصعب – إلحاديّاً – إدانة هتلر (187)، وأنه لا يوجد أساس واضح لاعتبار الاعتصاب سلوكاً إجرامياً (188).

يعود دوكنز في موارد أخرى، ليحاول أن يفرّغ الإيمان بالله من القيمة الأخلاقية كما هو الحال بالنسبة للإلحاد، إذ يقول في كتابه «وهم الإله»: (لماذا أكون صالحاً أن لم يكن هناك إله؟ إنّ طرح السؤال بتلك الطريقة يبدو دينياً. وعندما يطرحه إنسان متدين بهذا الشكل – والعديد منهم – يفعل ذلك نغمة رغبة ملحة بالتحدي التالي: هل تعني أن تقول لي يان السبب الوحيد الذي تحاول لأجله أن تكون صالحاً هو لتحصل علي رضا الله ومكافأته أو لتفادي غضبه وعقوبته؟ هذا ليس أخلاقياً بل هذا نفاق وتلميع للمظاهر فقط... لو وافقت على إنك في غياب الله فسوف تسرق وتغتصب وتقتل فإنك شخص لا أخلاقي وعلينا فعلاً أن نحتاط منك. وعلى الطرف الآخر لو وافقت أن تستمر في كونك صالحاً حتى بدون وجودك تحت مراقبة السماء فإنك تقوض زعمك بأن الله ضروري لكونك صالحين) (189)

ولكنّ دوكنز وقع في مغالطة كبيرة من حيث لا يشعر – نقول أنه لا يشعر من باب إحسان الظنّ – إذ أنّ وجه الاستدلال في البرهان الأخلاقي ليس هو الدافع الذي يجرك الإنسان المؤمن للالتزام بالفضائل وترك الرذائل، بل هو تفسيرٌ لنفس وجود القيم الأخلاقية في

حد نفسها، إذ أنه مع تعدد إيجاد أساس لتصنيف الأفعال إلى أخلاقية وغير أخلاقية لا يمكن أصلاً البحث عن الدوافع المحركة لكليهما.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن بيان ضعف هذه المروعة من قبل دوكنز، بأنها قائمة على فهم حدّي غير عميق لطريقة عمل الدين في المجتمعات البشرية، فالذي يحرك البشر نحو التزاماتهم الدينية – ومنها الالتزامات ذات الطبيعة الأخلاقية – ليس في الغالب محبة الثواب أو مخافة العقاب، بل الشيء الذي يحركهم عادةً وجعلهم نحو التزاماتهم الدينية في انطلاق وحماسة هو محبتهم لهذا الدين ونموذجه وتفاعله مع: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

بل إننا لو افترضنا أنّ هناك مساحة في المجتمع الديني تتحرّك نحو التزاماتها لنيل الثواب والأجر صرفاً، ومن دون ملاحظة لتفاعلهم القلبي واندماجهم في أجواء الدين، فإنّ ذلك لا يضّر بالمطلوب من الاستدلال بالبرهان الأخلاقي، لأنّ هذه الرتبة المنخفضة من صلة الإنسان بالتزاماته الدينية لا تحصل له إلا بعد قيام معيار واحد وأساس صلب يميز به بين الأفعال والمواقف النبيلة من غيرها، وهو اعتقاده بوجود نظام هندسي أودعه الله تعالى في النفوس البشرية ليدرك ذلك ويتحرّك نحوه، وبهذا التصوّر سيكون الإيمان الديني معزراً للقيم الأخلاقية، وهو التوصيف الذي لا يحبه دوكنز للإيمان.

يكن خطأ دوكنز، في الخلط بين مفردتي «الأسباب»، و«الآثار»، فالمؤمن لا يؤمن بأنّ الصدقة عمل طيب لأنّ فيها ثواب أو أنّ الظلم عمل قبيح لأنّ فيه عقاب في الآخرة، بل هو يؤمن بذلك بصورة مستقلة عن النظر في الثواب والعقاب، وإيمانه هذا يفتح له نافذة على اكتشاف حقائق كئيبة في الكون أهمها وجود الله، لأنّ وجود تقسيم للأفعال البشرية لا يمكن أن يستند إلا إلى أن الله هندس في النفوس البشرية نظاماً مدرّكاً ومحركاً نحو الخير ومنقيضاً عن الشر. تلك النافذة التي يصدّ عنها الملحد ولا يطبقها لأنه ينكر وجود الله من الأصل. أمّا مفردتا الثواب والعقاب فالمؤمن يتلقاهما على كونهما نداءات من القيم الدينية لتحفيز وإحياء فطرة الله المكشوفة أساساً في البشر، أي أنّهما من المفردات التي يعمل بهما الدين على إطلاق وتحفيز حركة المجتمعات في الإطار الصحيح.

استطراد متصل بالموضوع

في إطار البحث عن العلاقة الثنائية بين الإيمان والأخلاق، تلوح لنا إشكالية رئيسية تثار بإزاء هذه العلاقة، وهذه الإشكالية وإن كان موقعها يقع خارج الغرض الأساس من بحثنا هنا، إلا أنني أجد الإشارة إليها متمماً للموضوع لدفع الالتباس. تنطلق هذه الإشكالية من فكرة أنّ التجربة الاجتماعية للمؤمنين تكذب وجود علاقة حقيقية بين الإيمان وبين السلوك الأخلاقي، فإذا كان الإيمان هو المؤسس للحركة الأخلاقية فلماذا نجد أنّ الغش والفساد الإداري والاستبداد ينتشر أكثر في المجتمعات البشرية التي يظهر الدين كمظهر أساسي لهويتها، بينما نجد كثيراً من المجتمعات البشرية التي تعيش بعيداً الحالة الدينية في حياتها تعيش واقعاً أفضل على مستوى الأمانة والنزاهة وتقديم الخدمات للإنسان، ومن هنا حاول بعض المفكرين إحلال الإنسان محلّ الله كأساس ومعيّار للسلوك الأخلاقي، وهذا ما أصبح دارجاً في تعبيراتنا المعاصرة، فنحن نصف السلوك النبل بأنه «سلوك أو فعل إنساني»، وعادة ما نقرأ هذه السلوكات بمنظار أنها أفعال إنسانية محرّدة لا تتصل بأي رابطة بين الإنسان والله أو أي إلهام من الله للإنسان.

ولنا مع هذه الإثارة وقفة من وجوه:

الوجه الأول: أنّ البرهان الأخلاقي لم يقل أنّ الإيمان بالله هو الذي يحرك الأخلاق عند الإنسان – بصورة مطلقة – بل البرهان الأخلاقي يقول أنّ وجود الله هو الفكرة الوحيدة التي يمكن أن نفهم بها الأخلاق التي نجد في أنفسنا اندفاعاً فطرياً لها، والفرق بين الإيمان بالله، ووجود الله، واضح، فالإيمان مسألة تقع في نطاق اختيار الفرد وقناعاته، فهو يمكن أن يؤمن ويمكن أن يكون ملحداً باختياره، لكن كون الله موجوداً أو غير موجود هو مسألة واقعية خارجيّة خارج نطاق اختيار الإنسان، فالله إذا كان موجوداً فهو كذلك وإن لم يؤمن به الإنسان، وإذا لم يكن موجوداً فهو غير موجود وإن آمن به الإنسان، فالبرهان الأخلاقي لا يجعل الإيمان بالله أساساً سبباً لكون الفعل الأخلاقي كذلك، خصوصاً مع نظرية الحسن والقيح العقليين للأفعال التي يعتقد بها الإمامية مع المعتزلة – يعبر عنهم في أدبيات علم الكلام: العدليّة –، والتي تعني أنّ الأفعال الحسنة والقيحة هي كذلك في ذاتها وواقعها وليس أنها أصبحت حسنة لأنّ الشرع بها أو قبيحة لأنّ الشرع نهى عنها، إنما يقول البرهان الأخلاقي أنّ وجود هذا النظام الأخلاقي وهذا الإلحاح للالتزام به في ضمائرنا وإن كان ينطلق من منطلقات فطريّة سابقة لأي إيمان ديني، إلا أنه يكشف لنا عن وجود مصدر حقيقي هندس الإنسان وصمّمه وفق هذا الاحساس والإدراك، وهو الله تعالى.

الوجه الثاني: أنّ الامتثال السلوكي للقيم الأخلاقية لدى المجتمعات هو بحث أخلاقي اجتماعي، أمّا أصل تفسير أو تحليل مآثر بين الأفعال الأخلاقية وغير الأخلاقية هو بحث أخلاقي فلسفي، فإذا فرضنا أنّ هناك جماعة من المؤمنين بالله لا ينتهجون الأخلاق في حياتهم فليس معنى ذلك أنّ تفسير الأخلاق من خلال الله ونظامه المودع في الإنسان تفسيراً خاطئاً، لأنّ الخلل قد لا يكون في التفسير وإنما في التجربة البشرية في التفاعل معه، وكذا العكس، فانتهاج الإنسان لقيمة معينة في حياته لا يعني بشكل دقيق أنّ الفلسفة التي ينتمي إليها تعزز تلك القيمة، لأنّه قد يكون توهم أنّ تلك الفلسفة تعززها بينما هي في الواقع تناقضها أو تضادها، ولذلك أعتقد أنّ البحث الفلسفي أدق في هذا الحقل من البحث الاجتماعي إذ أنه يعطي تحليلاً دقيقاً لنفس الفكرة، وليس كذلك الأمر في البحث الاجتماعي الذي تحضر في ثناياه تناقضات مختلفة وظروف مانعة وخاصّة تجعل محور الدراسة هم البشر أنفسهم وليس الفكرة.

هذا من حيث الأصل، وإن كان لنا كلام طويل في التطبيقات، فمن قال أنّ ما تعيشه المجتمعات غير الدينية يمكن تسميته بأنه نظام «أخلاقي متطور»، إذ بقى لنا أن نسأل: هل الأخلاقيات في تجربة الإنسان الغربي مقصودة بذاتها ولكونها قيم مطلقة؟ أم أن مقصود التجربة الإنسانية هناك هو فرض السيطرة والسطوة وتحقيق المنافع وذلك لا يتحقق إلا ضمن إطار معيّن من السلوك، خصوصاً في الجوانب الإداريّة والحديّة؟ ولذلك نجد أنّ التجربة الإنسانية هناك لا ترى أيّ بأس في تجاوز القيم الأخلاقية العليا متى ما لم تكن مؤيدة لمزيد من السطوة والمنفعة الخاصة بها، فليس هناك اعتداد لنظام أخلاقي قيمية إمّا الاعتداد للسطوة التي تفرض أحياناً نصّاً من السلوك الجيد، ولأجل ذلك نرى هذه التجربة – المنفصلة عن الهوية الدينية – مستعدّة لتجاوز جميع الأخلاقيات الصالحة بل والتنظير لتجاوزها متى استدعت السطوة والمنفعة، خذ مثلاً تبرير أدولف هتلر لأعماله النازية بالنظرية الداروينية، فمقتضى نظرية داروين أنّ البشر ليسوا بيواسية كأسنان المشط، وإنما البشر لهم سلم تطوري وهناك أجناس راقية وأخرى دانية، وهذا كله يمكن ملاحظته وإثباته بيولوجياً، ولأجل ذلك ينبغي تحديد الأجناس البشرية الراقية والدانية، ويجب أن تكون حقوق الإنسان في الذي هو أعلى درجات السلم التطوري أعلى من ذلك الإنسان القايح في أدنى درجاته، فالثاني إما أن يكون خاضعاً للأول أو يُقضى عليه.

على الصعيد الفلسفي نظّر نيتشه في كتابه «الإنسان والسيورمان» لذلك، فالأخلاق الدينيّة التي تحتوي كمّا كبيراً من التنازلات كالإيثار ووجوب مساعدة الضعيف والعطف على المسكين والمساواة بين الناس المختلفين في الانتاج ليست سوى خديعة لإقناع النفس بالعجز، ولتبقى للكنيسة مصالحها من خلال إلهاء الناس بهذه الفضائل المصطنعة، بينما الفضيحة الوحيدة للإنسان هي أن يكون قوياً، أما ذلك الإنسان الضعيف فهو الذي تنازل بضعفه وفشله في تحقيق الفضيحة «القوة» عن جميع استحقاقاته، فالبقاء دائماً للأقوى.

ولربما نجد أنّ الواقع المنفصل عن الحالة الدينيّة يعيش فعلاً هذه التناقضات، فهو أخلاقي طالما كانت الأخلاق وسيلةً لتحقيق السطوة والسيطرة، وهو غير أخلاقي متى ما استدعت سيطرته أن لا يكون أخلاقياً، فالنظم السياسيّة الغربيّة التي تركز على أخلاقيّات عامّة في مجتمعاتها كالنزاهة والأمانة وخدمة الإنسان، هي نفسها النظم السياسيّة التي تسارع وتهرع لاستعمار الشعوب الأخرى وسرقة ثرواتها ودعم المحتلين الغاصبين لأرضها، فهي في الحقيقة لا تنطلق للمبادئ الأخلاقيّة – عندما تنطلق لها – لأنها تعيش حالة التفاعل مع هذه المبادئ، بل لأن تلك المبادئ أحياناً تساعد في تحقيق غايتها الحقيقيّة والجوهريّة وهي السطوة، وهذا الاعتداد بالقدرة والتمكن بل والتقدم الظاهري ليس على الإطلاق معياراً لتقييم السلوك الإنسانيّ أخلاقياً، بل حتى فرعون كان يتباهى بكونه قوياً ومتطوّراً: {وَبَادِيَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي... أَفَلَا تَبْصُرُونَ!}.

الوجه الثالث: أنّ الالتزام الأخلاقي الموجود في المجتمعات المنفصلة عن الدين في بعض الموارد المتفرّقة، يمكن أن يحكي كون الدوافع الأخلاقيّة دوافع فطريّة، فوجود الله تعالى يمكن أن يكون قضيّة مغروسة في أعماق فطرة الإنسان بحيث أنه يرتب آثارها وإن لم يدع لها أو يلتفت لواقعيّتها، وهذا يظهر في التعبيرات الشائكة التي يقدّمونها بديلاً عن الله، فالملحد أو غيره عندما يقول أنّ «الإنسانيّة» هي المعيار بين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي فهو في الحقيقة لم يقم سوى بتغيير لفظي، فهل هذه «الإنسانيّة» مفهوم مادي أم غيبي؟! فمثلاً عندما يرتكب أح علاقة محرّمة بأخته أو أمه ويكون ذلك بتراض منهم، فأين هو انتهاك الإنسانيّة؟! – تعمّدت أن أتى بمثال فطير للفت الانتباه إلى خطورة الفكرة –، فالواقع إذن أنّ «الإنسانيّة» هي استعارة للتعبير عن مفهوم غير مادي، يراد جعله معياراً بين الخير والشر، وهذا المعيار لا يمكن يكون صحيحاً وفق النسق الفكري للملحد، فهو إنسان لا يؤمن بوجود عالم الغيبيّات، فكيف له بعد ذلك أنه يتفنن هنا في اختراع مفهوم غيبي غامض كهذا، والحقيقة أنّ هذه ليست سوى لعبة لفظيّة لأتفه الضرورة الجأت إليها بعد عدم وجود تفسير حقيقي مادي للأخلاق، وليس اختراع مفردة «الإنسانيّة» في الحقيقة إلا تغيير لفظي، لأننا متى ما أمّنا بالغيبي فليس هناك في نهاية المطاف إلا الإيمان بالله.

لأجل ذلك، تبني بعض المفكرين، أنّ بعض الأخلاقيّات التي تصدر من الملحدّين تحكي في الحقيقة عن وجود إيمان في أعماقهم الشخصيّة وجذورهم الحضاريّة وعادات شعوبهم القديمة التي كانت مؤمنة ونسجت حياتها وأعرافها بمقتضيات الإيمان، فكلّ ذلك يؤثر في عمق الإنسان الملحد، فيؤثر الدين على الإنسان الملحد في العمق وإن كان قد تخلّى هو عن الدين في الشكل والسطح، والسبب في اعتقادنا بذلك بسيط، وهو أنّ انهيار مفهوم الله ومفهوم الغيب يؤدي بالضرورة لانهيار أي فرق بين العمل الأخلاقي وغير الأخلاقي فهو يُعدم لديه أساس الفكرة فضلاً عن تطبيقها، كتب «علي عزت بيغوفيتش»⁽¹⁹⁰⁾: (يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي. والسبب هو أن أخلاقيات اللادينّي ترجع في مصدرها إلى الدين.. دين ظهر في الماضي ثم اختفى في عالم النسيان، ولكنه ترك بصماته قوية على الأشياء المحيطة، تؤثر وتنتج من خلال الأسرة والأدب والأفلام والطرز المعماريّة... إلخ. لقد غربت الشمس حقاً ولكن الدفء الذي يشع في جوف الليل مصدره شمس النهار السابق)⁽¹⁹¹⁾

تجربة ارتداء حُودة الله!

تساءل الفلاسفة منذ الأزمان البعيدة عن ماهية العقل، وكانت تلك المسئلة شاقّة، فالعقل الإنساني الذي به نعرّف على الأشياء ونذكر من خلاله مختلف الحقائق، نجد أنه قلما يتحدث لنا عن نفسه، فهو صامت عن الإفصاح عن هويته الشخصية، وبقي الفلاسفة في حيرة عن معرفة الآلة التي بها استطاع البشر الفهم والتحليل على امتداد فصول حياتهم، حتّى جاءت العلوم الإدراكية بأسس تجريبية خاضعة للاختبار في دراسة وتحليل نشاط العقل، لتضع بذلك محاولات الفلاسفة المجردة وتأقلاهم السارحة في النظرية في متحف التاريخ.

تقوم علوم الإدراك على فكرة أنّ نشاطاتنا الواعية كلها عبارة عن سيالات عصبية مرسلّة للدماغ، فيشعر الإنسان بالغضب أو تعلّمه للغة ما أو اعتقاده بفكرة معينة، كل ذلك يتم في الواقع عبر تفاعلات عصبية خاصة في الدماغ، ولقد أصبحنا اليوم نستطيع رصد تلك التفاعلات بدقة مختبرية، بل نستطيع بواسطة علوم الإدراك أن نحدد المنطقة الخاصة من الدماغ التي يجري فيها كلّ عمل أو نشاط، فنحن في الحقيقة نقف في بداية طريق اكتشاف عمل العقل، ولهذا الاكتشاف فائدة جمّة، فربما من خلال تحفيز التفاعلات العصبية الخاصة بمنطقة ما من الدماغ نستطيع تحسين أداء الإنسان لوظيفة عقلية ما، على سبيل المثال، تعقّب جراح الأعصاب «وايلدر بينفيلد» السيل العصبي المسؤول عن الذاكرة البعيدة، وقام بدراسات يثبت من خلالها أنه يمكن تقوية الذاكرة البشرية بالتحفيز الكهربائي لمنطقة القشرة العميقة من الفص الصدغي، وبذلك يمكن أن تنتهي مأساة مرضى الزهايمر.⁽¹⁹²⁾

وتمكننا هذا من اللعب بإعدادات العقل، يعيد طرح إشكاليته هائمة على الطاولة، وهي إشكاليته منشأ الثقة بالعقل، فإذا كان يُمكن لأشياء – نعرف بعضها، ولا نعرف كثيرا منها لحد الآن – أن تؤثر على عمل العقل وتغيّر من نتائجه، فما الذي يجعلنا نثق به دائما ونعتمد عليه في بحثنا عن الحقائق، فلو تمكنا مثلا بواسطة تحفيز كهربائي في الدماغ أن نطلق سيالا عصبيا يولد الشعور بألم الركبتين، فسنشعر فعلا بالألم، ولربما نستنتج أننا تعرضنا لكدمة أو مرض، لكنّ العقل في تلك الحالة مخدوع، لأنه ليس هناك في الواقع إلا نشاط عصبي، فهل يمكن أن تكون بعض أو كل إدراكاتنا العقلية ضحية لفوضى من النشاطات العصبية – نشأت في ظروف قد لا نعلم طريقة حدوثها – في الدماغ من دون أن تحكي عن حقائق خارجة؟، قد تقول أننا لا داعي أن نفترض ذلك، لكنّ هذه الإجابة غير مريحة، فإذا كان الباب لذلك مفتوحا فعلا، فما الذي يبقى لنا نثقنا بالعقل واعتقادنا أنه أمين على المعرفة – بحيث نحاول أن نخبر صحة الأفكار بعقولنا –؟

أعاد هذا بقوة فكرة الفيلسوف «إيمانويل كانت» القديمة في النسبية، فما نراه ونذكره بالحواس مثلا قد يكون حقيقيا وقد يكون وهميا، فالشيء كما نراه نحن ليس بالضرورة هو الشيء في حقيقته، وبهذه الطريقة يكون باب كلّ علم منسداً، حتّى في أبسط الأشياء، فأنت غير متأكد حتّى من وجود الطاولة التي أمامك أو هذا الكتاب الذي تقرؤه إلا بواسطة الحواس، لكن من أخبرك أنّ الحواس أمينة إلى هذا الحد؟

من الواضح إذن أنّ علوم الإدراك تضع كلّ النظام العلمي للبشر على المحك، فهي تطرح إثارات خطيرة بالنسبة للأداة الرئيسة لجميع العلوم «العقل»، خصوصاً على مستوى التحليل وتنسيق النتائج، فإشكاليته علوم الإدراك في الحقيقة إشكالية معرفية، أي أنها تحتاج لمعالجة ضمن العلم المسمّى بـ «نظرية المعرفة» أو «الابستمولوجيا» كما يجب أن يسميه المثقفون، لكن المقدار الذي يهّمنا في هذا الصدد هو خصوص «علم الإدراك الديني»، فإذا كنّا نعتقد أن العقل دلنا على إيماننا بالله، وكنا قد بنينا في أنفسنا الإيمان على هذا الأساس، فما الذي يضمن أن لا يكون العقل في هذا المورد حاكياً عن مجرد تفاعلات عصبية في الدماغ؟، ولو أننا اكتشفنا نوعية السيالات العصبية الخاصة بالشعور الديني، وحددنا منطقة عملها في الدماغ، فلو أجرينا تنشيطاً لتلك السيالات هل يمكن أن يتحوّل الملحد إلى مؤمن؟ ولو أجرينا لها تشبيهاً فهل سينقلب المؤمن إلى ملحد؟!

هذه أسئلة تتعلق مباشرة بواقعية الإيمان بالله، فهل الله موجود في الواقع أم أنه موجود في عقولنا فقط!، وتعبير «كيلي كلارك»⁽¹⁹³⁾: (هل معتقداتنا عن الله هي مجرد أحداث دماغية أم أنها تجعلنا على اتصال بواقع خارج عقولنا)⁽¹⁹⁴⁾، لننتقل الآن في البحث..

تجارب الاقتراب من الموت!

لربما يكون قد تهاهى إلى سمعك ما يعرف بـ «تجربة الاقتراب من الموت»، حيثّ يخبرنا عن هذه التجارب أولئك الأشخاص القلائل الذين نجوا من نوبة قلبية أو موت سريري، وقد لوحظ أنّ إخبارات هؤلاء التاجين – بمختلف ظروفهم وأماكنهم – تحكي وقائع متطابقة، فهم يروون أنهم عاشوا للحظات معينة نوعاً خاصاً من الشعور، فكانوا يشعرون بمقدار كبير من الطمأنينة، وأنهم يتلقون الرعاية من مخلوقات نورانية خاصة، وتعيد أمامهم شريطاً مختصراً واقعياً عن فصول حياتهم، كما أنهم يخبرون أنهم في تلك اللحظات ينظرون إلى أنفسهم من الأعلى فكانهم يشعرون بنوع من الانفصال عن الجسد، كما أنّ رؤيتهم غير محدودة فهي تتجاوز ما وراء الجدران – فيخبر بعضهم أنه يرى أهله الذين كانوا يكون خارج غرفة الإنعاش –، كما يرى الأشياء بصورة غير محدودة الأفق 360 درجة، لربما تظنّ أنّ هذه الحكايات من هلاوس المتدبّنين، لكن ما كان صادماً فعلاً، أنه بسؤالهم عن الوقائع التفصيلية التي كانت تجري أثناء إنعاشهم – أي أثناء موتهم سريرياً – كانوا يخبرون عنها بشكل دقيق، وهذا يعني أنّ كانوا يعيشون تجربة حقيقية لا متخيّلة.⁽¹⁹⁵⁾

أثارت هذه التجارب التي سُجّلت على نحو متزايد، ولاقت نصيباً وافراً من الرواج، نظراً لما تحويه من الإثارة والدهشة، ذهول علماء الأعصاب والإدراك، فهرعوا لدراستها، يمكنك ملاحظة إحدى التقارير الصادرة عن القناة الفرنسية «فرانس 24» لمعرفة بعض التفاصيل عن الدراسات العلمية في الموضوع.⁽¹⁹⁶⁾

دعونا نستعرض إحدى أهم التجارب، والتي تؤكّد أنّ هذه الحكايات ليست على الإطلاق من هلاوس المتدبّنين، وموقعية هذه التجربة تكمن في أنها حدثت لإنسان ملحد، وهو في نفس الوقت شخصية علمية مرموقة بعيدة كل البعد عن الخرافات والخيالات، وهو أستاذ جراحة الأعصاب في جامعة هارفارد «إيبين أليكسندر»، ففي عام 2008 أصابت بكتيريا نادرة مميتة دماغ جراح الأعصاب أليكسندر، ونتيجةً لسيطرة هذه البكتيريا على كامل قشرة الدماغ، فقد أصبح أليكسندر في حالة موت سريري، وكان أصدقاؤه الأطباء ينظرون إليه نظرة العجز حتّى أنّ المتدبّنين منهم قرأوا عليه الصلوات – أخبر أليكسندر تفصيلاً عن تلك الصلوات فيما بعد –، في اليوم السابع حدثت مفاجأة جميلة لأصدقاء أليكسندر وعائلته، وهي عودته للحياة من جديد وتمكّنه من استعادة الوعي.

لكنّ ثمة مفاجأة أكبر، فأليكسندر الجديد يختلف بشكل جوهري عن أليكسندر القديم، فقد كان قبل ذلك ملحدًا متعنّتا ينكر بشكل كامل وجود ماهو غير مادي، وبحسب تعبير «كيللي كلارك» - الذي نقل منه أحداث هذه القصة -: (لم يكن أليكسندر يؤمن بوجود الله قبل دخوله المستشفى؛ ذلك لأنه - كما قال - لا يوجد دليل علمي على وجود الله. وعندما استيقظ أليكسندر من غيبوته، استيقظ مؤمنًا موقنًا بالله واليوم الآخر)⁽¹⁹⁷⁾

بروي لنا أليكسندر في كتابه «برهان الجثة.. رحلة جراح مخ وأعصاب في الحياة بعد الموت» عمّا شاهده وأحسّه خلال موته لمدة سبعة أيام، دعونا نقتبس بعض المقاطع المترجمة من كتابه لنفهم أسرار التحوّل الحاصل عنده:

(كنت في مكان كله سحب، سحب منتفخة هشة بيضاء تميل للون الوردي، وقد ظهرت بوضوح قبل السماء العميقة الزرقاء المسودة. وفي مكان أعلى من السحب، أعلى علي نحو لا يمكن قياسه كانت توجد حشود من كائنات سماوية شفاقة متألّثة تصطف في شكل قوس عبر السماء، تاركة وراءها خطوطاً تشبه أضواء الشفق الشمالي. أهي طيور؟ ملائكة؟ هذه الكلمات التي استعملتها عندما كنت أكتب مذكراتي، ولكن أيا من هذه الكلمات لا يصف هذه الكائنات التي كانت مختلفة تماما عن أي شيء عرفته على هذا الكوكب. لقد كانوا أكثر سموا، لقد كانوا أعلى.

ثم جاء صوت مدو مثل ترنيمة مبهجة متألفة من أعلى وتساءلت عما إذا كانت الكائنات المجنحة تقوم بإصدارها؟... لم يكن السمع والبصر حاسنين منفصلين في ذلك المكان الذي كنت فيه. كنت أسمع الجمال البصري للأجسام الفضية لهذه الكائنات العلوية المتألّثة بالأعلى، وكان بإمكانني أن أرى الكمال المبهج الفياض لأغانيهم.

تحدثت مرشدة أليكسندر الجميلة معه في نهاية رحلته بدون صوت وبدون كلمات، وقالت: أنت محبوب ومرحب بك بعمق وللأبد. ولا شيء لديك لتخاف منه. ستظل محبوباً دائماً، وليس ثمة شين تفعله. وفي النهاية أخبرته أنه يجب عليه العودة إلى هذا العالم، إلى حياته. ثم استيقظ)⁽¹⁹⁸⁾

بعد استفاقته لم يكن لدى أليكسندر أيّ شك أنه كان في عالم حقيقي، فقد أخبر عن مشاهدات واقعية حصلت في غرفة العناية المركزة عندما كان في حالة موت سريري، وأخبر أنه كان يرى نفسه من الأعلى، وكان يستمرّ بالصعود حتّى وصل إلى «ملائكة الجثة»، وبحكم كونه عالماً مرموقاً فقد كان يدرك أنّ مستوى الإدراك الدماغى يفترض أن ينخفض تدريجياً بعد انقطاع الأوكسجين، أمّا المشاعر التي كان يعايشها كانت تتطلب مستوى عالياً من النشاط الدماغى وهو غير محتمل بالنسبة لإنسان ميت الدماغ، كان لأليكسندر فرصة أن يستفيق من موته، والأهم من ذلك أنها كانت فرصة لاستفاقته من الإلحاد.

على الطرف الآخر، زادت تجارب أليكسندر وأشباهها بعض المناوئين للدين إلحاداً إلى إلحادهم، فقد اعتقدوا أنّهم طغروا الآن على دليل ملموس أنّ الاعتقادات الدينية ماهي إلا اضطرابات كاذبة تحدث في الدماغ، فهؤلاء لو لم تكن أدمغتهم مضطربة لما أحسّوا بشيء، إذن فالله والجنة والغيب ليست إلا سيالات عصبية معثرة، على رأس هذا الاتجاه وقف كل من سام هاريس⁽¹⁹⁹⁾ وفينكتور سينجتر وأوليفر ساكس⁽²⁰⁰⁾، لكنّ أهمّ إثارة - على الإطلاق - في هذا المجال، كانت إثارة عالم الأعصاب «مايكل بيرسنجر»⁽²⁰¹⁾ من مختبره في جامعة لورانس الكندية، فهناك الأذى أنه وجد الدليل القاطع على أنّ «الله» ليس سوى وهم يخدع أدمغتنا لبعض الوقت، وهو ما أطلق عليه فيما بعد «تجربة ارتداء خوذة الله».

تجربة ارتداء خوذة الله

قام بيرسنجر بدراسة تفصيلية للنشاط الدماغى للأشخاص الميتين سريرياً، لمعرفة ما يجري بالضبط أثناء «سكرات الموت»، إذ سوف يساعدنا ذلك على فهم روايات تجارب العائدين من الموت، كما قام بدراسة حالات واسعة لأشخاص يقولون أنّ لهم تجارب روحية أو اتصال استثنائي، فكيف تعمل أدمغة هؤلاء الأشخاص بالتحديد في تلك اللحظات التي يشعرون فيها بأنهم على صلة بـ «عالم الغيب»؟

وجد بيرسنجر أنّ جميع عيّنات الدراسة تشترك في أنهم خلال المرور بلحظات الشعور بالله أو الملائكة أو العالم الأعلى، يحصل لهم في الحقيقة نوعٌ خاص من النشاط الدماغى، وهو توافد تذبذبات وموجات كثيفة ومتنوعة إلى جزء خاص من الدماغ يطلق عليه «الفص الصدغى»، من قبيل تذبذبات «جاما وألفا وبيتا» وغيرها.. بدأ بيرسنجر يطرح على نفسه سؤالاً خطيراً، - وهو -: هل يمكن أن تكون معتقداتنا الدينية ناشئة بسبب هذا النمط الخاص من الموجات في الدماغ؟! معنى ذلك أنّ الفرق بين المؤمن وغيره ماهو إلا سيالات عصبية، إذا كان هذا صحيحاً فهو يعني أنّ معتقداتنا الدينية لا صلة لها بالواقعية ولا الحقائقية وإنما هي اضطرابات دماغية أو على الأقل أحوال دماغية غير مختارة، تقع لبعض الناس دون بعضهم.

ولا يفوتك ما يحتويه هذا السؤال من الخطورة الهائلة، لأنه يشمل حتّى الأنبياء، إذ أنهم أكثر الناس مروّراً بالتجارب الروحية، بل لهم تجارب خاصّة بهم في الاتصال الاستثنائي، وهو ما تعبّر عنه بـ «الوحي»، أي تلقي الرسائل وتبادل الخطاب مع الله إما بالمباشرة أو عبر الملائكة، فهل الله هو الذي أوحى للأنبياء تلك القصص الطويلة التي يحكيها لنا القرآن والكتب المقدسة، كقصة إبراهيم عندما دُعي إلى ذبح ولده - ثمّ افتدى بذبح عظيم -، أو قصة موسى عندما نودي من جانب الطور الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، أو قصة النبي محمد عندما تلقى الوحي في غار حراء، أم أنّ الذي أوحى كلّ ذلك كان نشاط باذخ لأشعة كهرومغناطيسية في الفص الصدغى من دماغ النبي أو الرسول؟!!

قام بيرسنجر بتجربة، وهي محاكاة النشاط الدماغى لأصحاب التجارب الروحية، فقد قام بتصميم جهاز كهربائي على شكل خوذة، بطريقة يقوم بها هذا الجهاز بتحفيز نشاط الموجات والسيالات العصبية في منطقة «الفص الصدغى»، والآن علينا أن نجرب ارتداء هذه الخوذة التي سمّيت فيما بعد بـ «خوذة الله»، فدعونا نضع الأشخاص - محل التجربة، وبعضهم من الملحدين - في أماكن خاصّة وهادئة، ونجعلهم يرتدون هذه الخوذة التي ستقوم بتحفيز نشاطهم الدماغى الخاص، فإذا أخبر هؤلاء أنهم شعروا بوجود الله أو التقوا بالملائكة أو خلقوا في عوالم سماوية، فهذا يعني بوضوح أنّ الاعتقاد الديني مجرّد وهم دماغية كاذبة، لأنّ هؤلاء لم يكونوا إلا في غرفة المختبر.

يقول بيرسنجر أن 80% من الأشخاص الذين خضعوا للتجربة – على الرغم من اختلافهم على مستوى كونهم مؤمنين أو غير مؤمنين، وعلى مستوى أديانهم بالنسبة للمؤمنين – أخبروا عن شعورهم بتجارب روحية تتضمن الإحساس بوجود الله، وكانت نتيجة الدراسة هي العبارة التي أطلقها بيرسنجر: (بدلاً من أن يخلق الله أدمغتنا، فإن أدمغتنا هي التي خلقت الله)⁽²⁰²⁾.

استدعت نتائج بيرسنجر مع ما لاقته من الرواج السرور لدى الملحدين، وعلى رأسهم «ريتشارد دوكنز» الذي هرع إلى مختبر بيرسنجر في كندا في عام 2005 ليقوم بتجربة خوذة الله، لأجل أن يعرف ما إذا كان المرور بتجارب روحية ينتج فعلاً من هذا النشاط الدماغي، لكنه على الرغم ارتدائه للخوذة الكهربائية وتنشيطها لديه لم يحصل له أي شعور بأي وجود وغاية ما هنالك أنه أحس بوجوده في ظلام دامس⁽²⁰³⁾.

أثارت تجربة دوكنز ردود أفعال سلبية نسبة إلى صدق استنتاجات بيرسنجر، إذ أنها تمثل «مثالاً مضاداً» للنتائج التي يريد تعميمها، فلو كان التحفيز الكهرومغناطيسي هو السبب في حصول التجربة الروحية لحصلت لدوكنز، لأجل الدفاع عن تجربته قام بيرسنجر باتهام دوكنز بأنه دخل إلى المختبر وهو تحت تأثير كمية عالية من الكحول، ولأجل ذلك لم تظهر عليه النتائج⁽²⁰⁴⁾.

المثير فعلاً أن بيرسنجر وهو ملحد أحب أن يتاجر بالدين، فهي مهنة مربحة طبعاً، لأجل ذلك أصبحت «خوذة الله» منتجاً يباع: (فبالإمكان أن تشتري خوذة الله الخاصة بك عبر الإنترنت مقابل 145 دولاراً فقط بالإضافة إلى 5 دولارات شحن – داخل الولايات المتحدة الأمريكية)⁽²⁰⁵⁾.

نقد بيرسنجر

لم تسلم محاولات بيرسنجر من النقد، وفي الحقيقة تقوم محاولات بيرسنجر على منهج اختزالي في العلوم الإدراكية، ومعناه أن جميع إدراكاتنا موجودة في الذهن حصراً، ولا نستطيع معرفة ما إذا كنا مخدوعين بها عبر سيالات عصبية مأكرة أو كانت حقيقية، لذا، فإنّ الأفضل هو التركيز على النقود المقدّمة لعموم المنهج الاختزالي للعلوم الإدراكية بدلا من التركيز على خصوص مناقشات تجربة بيرسنجر، لأنّ تلك النقود المنهجية تشمل تجربة بيرسنجر وغيرها.

نقد ستوربات جادج

يرى «ستوربات جادج»⁽²⁰⁶⁾ أنّ الاختزالية الإدراكية تؤدي إلى انسداد كلي لباب المعرفة، وهي بذلك تشمل نفسها، فهي مهزومة ذاتياً، فإذا كانت الإدراكات العصبية هي المفسر الحصري لنشاطاتنا الذهنية – العقل –، وكنا لا نستطيع بأي حال أن نثق بهذه الإدراكات لأنها تقع تحت تأثير الفوضى العصبية، فكيف يسوغ لنا أن نثق باعتقادنا هذا نفسه – وهو أنّ إدراكاتنا العقلية يمكن أن تقع تحت تأثير الفوضى العصبية – فاعتقادنا هذا ينطوي على إدراك وتحليل عقليّ، ونحن نفترض عدم الوثوق بصدق الإدراك فكيف صدّقناه هنا؟!

(افترض أنه من أجل الحجة تقبل المرء الرأي الذي يقول بأن الوعي هو ظاهرة أو وهم، وأن الآليات العصبية هي الشيء الحقيقي الوحيد بالنسبة لنا كعالمين. إذن ليس لدينا طريقة للتعبير عن هذا الاستنتاج، لأن كل هذه الاستطاعة غير ضرورية. بعبارة أخرى: إن الاختزالية القوية، مثل الأشكال الأخرى من المادية، تطعن نفسها بسيفها. فإذا كنا لا شيء سوى حزمة من الخلايا العصبية»، إذن ليس هناك من أحد يؤكد هذا التوكيد)⁽²⁰⁷⁾.

نقد كيلبي كلارك

يرى كيلبي كلارك أنّ المشكلة الرئيسية لتجارب بيرسنجر وجميع التجارب الاختزالية، هو أنها تقيس ما هو واقع تحت التأثير بما هو طبيعي، ولا مقايسة بين الأمرين، وبأنّي بمثال طريف جدّاً، وهو أنه لو تمكن عالم أعصاب ماهر من إرسال سيال عصبي إلى دماغي بوجود شجرة أمامي [ولم يكن الواقع كذلك]، ولنفترض أنني اعتقدت خطأ في تلك الحالة بوجود شجرة أمامي فعلاً، فهل هذا يعني أنّ جميع إدراكاتي السابقة واللاحقة للأشجار في الطبيعة كانت خاطئة؟!

بالطبع لا، والسبب في ذلك أنني خدعت هنا ووقعت تحت تأثير ماكر، بينما لم أكن كذلك في عموم حياتي، إذ كانت الأمور تجري على طبيعتها: (وربما يأتي اليوم الذي ينجح فيه عالم أعصاب ماهر في إحداث تحفيز كهرومغناطيسي في الجزء الخاص بالإدراك الحسي من دماغي يجعلني أحصل على إحساس بصري حقيقي للغاية برؤية شجرة أمامي دون أن تكون أراها في الواقع. وإذا حدث ذلك فسأجد نفسي أعتقد (خطأ) أن ثمة شجرة أمامي، فهل يجب أن يؤدي هذا الخلق الكهرومغناطيسي للإدراك الحسي وما يصاحبه من اعتقاد إلى تفويض عقلائية كل معتقداتي الحسية؟! إذا كنت أعرف أن اعتقادي بوجود الشجرة قد نتج مباشرة من خلال التحفيز الكهرومغناطيسي لدماغي وليس بواسطة رؤية شجرة حقيقية فسيكون هذا الاعتقاد غير عقلائي ويتم تفويض هذا الاعتقاد الشجري تحديداً من خلال إدراكي بأنه كان نتاجاً مباشراً بواسطة الخوذة وليس من خلال رؤية الشجرة. وبالمثل، إذا علمت أن اعتقادي بالله قد أحدث كهرومغناطيسياً دون أي اتصال موثوق بالله فهذا الاعتقاد إذن سيكون غير عقلائي، وجنيتها فإن هذا الاعتقاد بالله الذي نتج على هذا النحو سيقوض تفويضاً عقلائياً من خلال إدراكي أنه نتج عن خوذة وليس عن طريق الله.

ولكن هل هذا يقوض كل اعتقاد بشجرة أو كل اعتقاد بالله؟ لماذا يجب أن تقوض هذه التجارب المختبرية عقلائية كل اعتقاد بشجرة أو كل اعتقاد بالله؟⁽²⁰⁸⁾

نقد ألفين بلانتجا

يرى ألفين بلانتجا أنّ العلوم الإدراكية لا تتمكن من نفي الواقع، لأنها ليست بأكثر من وصف لطريقة إدراك الإنسان للواقع الحقيقي، واكتشاف طريقة الشيء لا يعني بأي صورة بطلان ذلك الشيء، فمن خلال العلوم الإدراكية نحصل لدينا معرفة بطريقة تفكير العقل واستخراجه للحقائق، لكن ما صلة ذلك ببطلان تلك الحقائق، أليس التفسير الأكثر ملائمة ومنطقية أن نقول أنّ هذه الطرق تكشف لنا طريقة الحركة العقلية في مهنتها الرئيسة وهي اكتشاف الحقائق؟! (إن وصف كيفية نشوء التدبير وكيفية عمل الآليات الإدراكية المصاحبة لهذه الصفة لا يستلزم القول ببطلان الدين. لا يعتقد أحد أن وصف العمليات التي تجري في الدماغ عند حصول الإدراك

الْحَسِي – يستلزم إبطال واقعية مدركاتنا الحسية، لماذا يختلف الوضع عند الحديث عن الدين؟ تتضمن العقيدة المسيحية الاعتقاد بأن الله خلقنا بطريقة تمكننا من معرفته والأنس به. يمكن تحقيق هذه الإرادة الإلهية بطرق عديدة كأن يعمل الانتخاب الطبيعي على تكوين آليات إدراكية تتطور إلى الدرجة التي يمكن من خلالها تكوين اعتقادات بوجود ما وراء الحس عموماً ووجود الله خصوصاً. إن وجود منشأ طبيعي للدين لا يستلزم على الإطلاق بطلان الدين⁽²⁰⁹⁾.

إعادة إنعاش الفطريّ من الدين!

هناك تفسير آخر يمكننا من خلاله فهم الآليات الإدراكية للدين، وهو أنّ هذه الإدراكات تكشف لنا عن استعداد خاص في الطبيعة البشرية للإيمان بالله، فتصميم الإنسان الداخلي يتسق تماماً مع كونه مؤمناً، بل يمكننا أن ندّعي أن ما تمّ الكشف عنه في تجربة بيرسنجر يكشف لنا أنّ البشر لا يبلغون رتبة الإيمان إلا بعد استثارة أو إحياء شيء هو في نفوسهم، فلربما أكره بيرسنجر بعض الناس على إحياء هذا الشيء بواسطة لعب كهربائي بادمغتهم، لكن ذلك لم يكن ليحقق أصلاً لولا أنّ أدمغتهم كانت من الأصل حاوية على «شيء» فعلاً، وهو الذي استثارة بيرسنجر.

نعبر عن هذا «الشيء» أو الاستعداد المودع لدى الإنسان بـ «الفطرة»، وهو ما يسمى أحياناً «الدليل الفطري على وجود الله»، فالفطرة هي استعداد عميق لدى البشر من أنفسهم، تجعلهم يتفعلون مباشرة مع هذه الفكرة بمجرد الالتفات إليها، من دون حاجة إلى إرهاق استدلال، فهي موجودة في أعماقهم وما عليهم إلا الالتفات إليها وإحيائها، فما تفعله خودة بيرسنجر أنت تفعله في نفسك بالالتفات إلى هذا الجانب المكنون فيها، وهو الجانب الإيمانيّ.

وربما يمكن دعم هذا التوجه ببعض الآيات القرآنية الكريمة التي وصفت العلاقة الدينية بأنها علاقة فطرية، بل أشارت تلك الآيات إلى أنّ هذه الفطرة لها صلة بالنظام الخلقي الطبيعي للإنسان: {قَامَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ! ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، ومثلها الآيات القرآنية التي وصفت عمل الأنبياء بأنهم «مذكرون»: {طه. مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَحْشَى. إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَحْشَى}.

وفي سورة الغاشية، يستعرض القرآن بعض مظاهر التّظم البديع في الكون بوصفها دلائل على الخالق، – الإبل كيف خلقت، والسماء كيف رفعت، والأرض كيف سطحت – ثم يقول: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ}، أي أنّ تلك الدلائل ليست سوى مذكرات، والحقيقة أنّ إدراك وجود الله مودع في نفس الإنسان، فالاستدلال هنا لا يقوم بوظيفة إنشاء معلومات جديدة كانت حقيّة وإنما التذكير بحقائق منسوبة⁽²¹⁰⁾، فليس عمل الأنبياء في الحقيقة إلا إنعاش الجانب الفطري من الإنسان، فهم لا يسوّقون لحقائق غريبة من خارج الإنسان وإنما يعملون بالحكمة والموعظة الحسنة لاستخراج الحقيقة الدفينة في الإنسان نفسه.

لوهلة ما، قد يتردد الإنسان في قبول هذا التفسير، فالإيمان بالله إذا كان فعلاً أمراً فطرياً، فكيف نجد أناساً كثيرين يتنكرون لهذه الفطرة ويُلحدون؟! أليس في وجود الإلحاد في المجتمع البشري دليلاً واضحاً يحدض فطرية الإيمان؟!

لكننا هنا، مرةً أخرى، أمام التباس في المفاهيم، فهناك فرق جلي بين الأمر الفطري والأمر الجبري، فكون الأمر فطرياً إنما يعني أنّ للإنسان استعداد خاص تجاه هذا الاعتقاد، لكنّ هذا الاستعداد لا يخترق القانون الكلي: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، فأرادة الإنسان أمينة على الفطرة، أمّا إذا عمل الإنسان بنفسه على إيمانه هذه الفطرة وإقصائها فإنها تخبو وتخبو حتّى لا يبقى منها شيء صالح للتأثير.

يمكن تقريب هذا المشهد بوجود لاعب كرة قدم محترف يتعرّض لإصابة أثناء مباراة مصيرية لفريقه، لربما لا يشعر هذا اللاعب بتلك الإصابة إلا بعد انقضاء اللعبة، بل ربّما يتألق بعد حصول الإصابة ويسجل بعض الأهداف – من يتابع كرة القدم يعرف أنّ هذا الأمر يحصل كثيراً، – فكيف لم يشعر هذا اللاعب بالإصابة مع وجودها في نفسه إلا بعد انتهاء اللعبة؟! الواقع أنّ اللاعب كانت نفسه مشدودة أثناء اللعب لعالم آخر غير عالم ألمه الجسيمي، وهو عالم المنافسة الرياضية، ولذلك لم يشعر بالألم لأجل طغيان عالم الأكشن الرياضي على عالم الشعور الجسدي. بمجرد أن يتوقف عالم الصخب الرياضي يبدأ براوده الألم لأن «الحاجب عن شعوره بما في نفسه قد زال».

وهنا يتدخل العرفاء ليقدموا نظرة خاطئة في عدم شعور الإنسان في كثير من الأحيان بالله، إذ أنّ عدم شعور الإنسان أحياناً بالله ليس لأنه غير موجود وإنما لأنّ الإنسان متبلد الإحساس، وهذا ليس إلا بسبب انشغاله بعوالم أخرى غير عالم الله، وتعبيرهم بسبب وجود «حجب الذنب» و«حجب الغفلة» التي تبلد مشاعرنا الإلهية، ففي مقابل هذه الفطرة توجد الغريزة، وإذا بدأ الإنسان في إطلاق غرائزه من دون معايير أخلاقية فإنّ هذه الفطرة تخبو حتّى لا يعود لها أي تأثير، فهي رغم وجودها، إلا أنّها تستطيع إحداث أدنى فرق، إذ أنّها محنطة بالغرائز، – فهي تشبه إلى حد كبير المجتمعات الإسلامية اليوم، فهي رغم وجودها إلا أنّها مسلوبة الحراك والتأثير، لأنّها محنطة بالأطماع الغريبية والانهزام الثقافي للمسلمين – تماماً مثل إصابة لاعب كرة القدم التي لا يشعر بها أثناء اللعب رغم وجودها في نفسه، لأنه منشغل عنها بعوالم أخرى.

وربّما يمكن إستلهام هذا المعنى من بعض فقرات المناجاة الشعبانية للإمام علي – ع – حيث يقول وهو يصف مشكلة الإنسان في علاقته مع الله بأنها مشكلة سهو وغفلة: (إلهي.. وقد أفنيت عمري في شرة السهو عنك.. وأبليت شبابي في سكرة التباعد منك... إلهي لم يكن لي حول فانتقل به عن معصيتك إلا في وقت أيقظتني لمحببتك... فكما أردت أن أكون كنت، فشكرتك بأدخلي في كرمك، ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك)، فبحسب الإمام علي – ع –، وفقاً لهذه العبارات الرقيقة والشريفة فالمشكلة الأساس في علاقة الإنسان بالله هي مشكلة «أوساخ الغفلة»، ومتى ما استطاع الإنسان تطهير قلبه من أوساخ الغفلة فهو يلمس في وجدانه مسحة الحضور الإلهي، وهذا يناسب جدّاً كون الحضور الإلهي في الإدراك البشري حضوراً فطرياً، لأنه يتقوم بالشعور والالتفات وليس الاستدلال، نعم، لربما يساهم الاستدلال في رفع القواعد الأصلية من هذا الشعور ودعمه وتفعيله.

وبهذا التفسير يمكننا أن نعتبر أنّ مخرجات علوم الإدراك الديني، هي في الحقيقة وواقع الحال وقوفٌ علميٌّ صريح على الجانب الفطري للإيمان، فالإنسان لا يمكن أن يكون بأيّ حال غريباً عن الله، ومتى ما أقصي الإنسان الله فإنه يكون غريباً حتّى عن نفسه، وحتّى عن اتساقه الطبيعي، فهو بإنكاره لله يتناسى نفسه ويتلاعب حتّى بدماغه، لأنّ الله حاضر وجدانياً في كلّ ذلك، أي أنّه يصيح من:

{الَّذِينَ تَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}، لقد كنّا سابقاً نقول ذلك من باب التسليم والإيمان الديني، لكننا اليوم أصبحنا نستطيع إثبات هذه الفكرة بقوة الدليل العلمي.

خلاصة

في أحد أيام عام 2018، حيثُ كان لي من العمر ست عشرة سنة، استيقظتُ على نبأ وفاة عالم الفيزياء البريطاني المقعد «ستيفن هوكينج»، لم تكن لي أي معرفة بهوكينج أو متابعة لنشاطه العلمي، لكن الملفت بالنسبة لي كان الجدل الواسع عن المصير الأخرى لهوكينج على منصة تويتر، فبين من يترحم عليه لأنه خدم الإنسانية رغم ظروفه الصعبة – كما يُقال –، وبين من يقول أنه لا يجوز الترحم عليه، لأنه «ملحد ملعون» سيخلد في التَّار.

لاحظت حينها، أنَّ أحدًا لم يتعرض لمقولات هوكينج أو يلخص لنا أفكاره، كان هناك فقط أناس يطلون على الأشياء من بعيد، بين ممجد منبهر بما لم يحط به خُبْرًا، وبين ناغم تدفعه الحميَّة الدينيَّة لإطلاق الكلمات الحادَّة، هذه الثنائيَّة لم تكن مريحة لفضولي، لأجل ذلك، اقتنصتُ الفرصة عند زيارتي لأحد معارض الكتاب الدوليَّة، واقتنيتُ أهمَّ الكتب التي أصدرها الملحد المقعد – أو الموصوف بأنه كذلك –.

بعد ذلك بفترة وجيزة بدأت أسمع بما أُطلق عليه «موجة الإلحاد» في العالم العربي، وأتذكر أنَّ هذا الموضوع كانت له أصداء واسعة، حتَّى أنَّ المنابر الدينيَّة ركَّزت عملها بشكل واضح لمواجهة هذا الخطر وسدَّه خصوصًا في المواسم الجماهيرية، وكان حضور هذا التوجه في الخطاب الديني واضحًا لأي مراقب ومشاهد.

لم أقمُ بأيِّ دراسة عمَّا إذا كانت هناك فعلًا ظاهرة أو موجة للإلحاد، لكنني بمعزل عن ذلك لم أكن أشكُ أنَّ نمط التفكير الإلحادي الذي يعتمد على إقصاء محوريَّة الله له حضور ونشاط عالمي واسع، ولا يزال كذلك، كان هذا الاعتقاد مع ما يكتنف به من الظروف التي أعطت للجدل في وجود الله زخمًا كبيرًا هو الموقد الذي أشعل في نفسي الرغبة لوضع الإيمان والإلحاد على طاولة البحث.

رافق هذا الموقد، قناعتي بأنَّ الإنسان إذا لم يكن متيقنًا عبر الدليل، في أهمِّ مسألة وأكبر مسألة تترتب عليها جميعُ اعتقاداته، فمعنى ذلك أنه لا يعيش سوى حالة من التقليد التكراري الذي يمجِّه أيَّ امرءٍ يشعر بقيمة لعقله وإدراكه وتجربته في عالم الحياة.

كان البحثُ يتطلب شيئًا من التحرر عن الذات، وإلا فلا معنى للبحث لأنه ليس أكثر من استعراض، لأجل ذلك حاولت خوض تجربة الانفصال عن الذات، عن القناعات المسبقة المبنية على الانتماء الاجتماعي والوعي الثقافي العميق، فنحنُ الآن بصدد الانتماء للدليل لا للثقافة ولا للمجتمع، فكان ما راجعته من الأبحاث والمقالات والكتابات المثبتة للإلحاد أكثر مما راجعته من الكتابات والمقالات الإيمانيَّة طلبًا لتحقيق نوع من التوازن.

نعم. لم أكن أسمح لنفسي أن تذوب سريعًا فيما تتعرف عليه من الأفكار الغربية، لم أكن أشعر في تلك اللحظات أنَّ إيماني سهلٌ ومهزوم تحت أي فكرة تسوِّق هنا وهناك، لذلك كنت أداول وأتداخل ما أطلعه من أفكار مع بعض الباحثين المختصين في الحقل الفكري الديني، ولو أنَّ بعض الإخوة الذين يستسهلون التحول عن الإيمان خاضوا تجربتهم الثقافيَّة على هذا الأساس من عدم الركون السريع للذويان، لوجدوا أنَّ الإيمان ليس على الإطلاق سهلَ الهزيمة.

لم يدم ذلك التحرر عن الذات طويلًا، فما لبثت حتَّى عُدت لذاتي المطرزة بالاعتقاد الجزميِّ بأنَّ الله موجود، لكنَّها عودة جديدة لا تشبه الشكل القديم من الذات، لأنها مبنية على التقييم لا التقليد، ومبنية على الدليل لا التبعيَّة.

ينبغي الإشارة إلى أننا ركزنا الحديث في هذه الأوراق على مسألة هامة محورية وكليَّة، وهي: وجود الله، من دون أن نخوض في مسائل أخرى أكثر تفصيلًا وتعقيدًا، كالحديث عن جوهر الله أو صفاته، أو عن المسألة الأهم وهي ما يترتب على وجوده من مسؤوليات تجاهنا أي «العلاقات التي تربطنا بالوجود الإلهي»، حيثُ أنَّ البحث عن هذه المفردات يوجب طول المقام وإسهاب الكلام. إنما يكفيننا في هذه الصحنات أن نضع خطوة على عتبة العلاقة مع الله، والتعرف الحقيقي عليه، تلك الخطوة التي عبَّر عنها الإمام علي – ع – في نهج البلاغة بأنها: (أول الدين).

وفي الحقيقة أنني في أول انطلاقي في هذا البحث كنت عازما على تدوين الأسس الفكرية التي صنعت لي قناعة بالرؤية الدينية التي أعتقد بها، تلك الرؤية التي تمتد من إثبات وجود الله تعالى ومحورثته وصفاته الكلية، إلى وجود الرسالات النبوية التي توفر قاعدة لعلاقة الإنسان بالله، وعلى طليعتها الرسالة الخاتمة المحمَّدية والولاية الإلهية التي تضطلع بأدوارها بعد رحيل ممثلها الأول وهو النبي – ص –، إلى فكرة القيامة والمعاد باعتبارها نقطة العودة والرجوع إلى الله الذي انطلقت منه كل بداية وترجع إليه كل نهاية، لكنني وجدت أنَّ فتح كل هذه الملفات الكبيرة بإزاء بعضها واقتضابها في بحث واحد لربما يوجب تحوُّل البحث إلى استعراض بدلا من كونه بحثا بمعنى الكلمة، ولعلَّ الله سبحانه يوفِّقني في قادم الأيام إلى سبكة تكون متناسبة في سطحها وجدَّتها العلميَّة وثمرتها في تحقيق هذا المقصد، وهو التأصيل للقناعات الدينية الكبرى، من دون تحوُّل الكلام إلى كلام سرديٍّ عاطفي، ولا إسهاب ممل لمن يتلقاه.

يكفيني، من خلال هذا البحث، أن أقف مع الفارئ الكريم على عتبة نعتقد فيها ونتيقن أن الله موجود! ولسان حالنا يردد بشوق وشغف: لننتقل الآن في رحلة بحثية من نمط جديد، وهي البحث عن فتح علاقة حقيقيَّة مع الله! مستندة إلى معرفة عميقة به. كيف يكون ذلك يا ترى!؟

آمل أن يُسعفنا القدر أن نتناول هذا السؤال الخطير والمثير في بحث قريب إن شاء الله...

فرغ منه في: يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول، من العام 1446 هـ

في يوم مولد النبي – ص –

- 2 ستيفن هوكينج. التصميم العظيم، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، 2015
- 3 ألفن بلانتنجا. العلم والدين والطبيعيّة – أين يقع التعارض؟، ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019
- 4 ريتشارد دوكنز. الجينة الأنانيّة، ترجمة: مركز الباطنين للترجمة، دار الساقى، بيروت، 2009
- 5 دوجلاس آكس. غير قابل للتكذيب – كيف تؤكّد البيولوجيا صدق حدسنا أن الحياة مصممة –، ترجمة: محمد القاضي وزيد الهبري، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، 1440 هـ
- 6 بليز باسكال. خواطر باسكال، ترجمة: ادوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، لبنان، 1972
- 7 لورانس كراوس. كون من لا شيء، ترجمة: غادة الحلواني، منشورات الرمل، مصر، 2015
- 8 ريتشارد دوكنز. حوارات سيدني، ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش، دار سطور، بغداد، 2017
- 9 ريتشارد دوكنز. حوارات سيدني، ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش، دار سطور، بغداد، 2017
- 10 عادل مصطفى. المغالطات المنطقيّة – فصول في المنطق غير الصوري –، دار رؤية، مصر، 2019
- 11 الكليني. الكافي، ج 1 ص 75، دار الكتب الاسلامية، ايران، 1388
- 12 ريتشارد دوكنز. وهم الإله، ترجمة: بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية
- 13 جون لوك. رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنه، المشروع القومي للترجمة، مصر، 1997
- 14 ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
- 15 بول ديفيز. الجائزة الكويّبة الكبرى، ترجمة: د. سعد الدين خرفان، الهيئة

- العامّة السورّيّة للكتاب، دمشق، 2011
- 16 جون لينوكس. العلم ووجود الله – هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟! –، ترجمة: مارينا كتكوت، خدمة. م. 2007، 17 credologos، أنتوني فلو. هناك إله – كيف غير أشهر ملحد رأيه –، ترجمة: د. صلاح الفضلي، مراجعة وتدقيق: الشيخ د. مرتضى الفرج، العتبة العباسية المقدسة، 1438 هـ
- 18 بيل برايسون. موجز تاريخ كل شيء تقريباً، ترجمة: أسامة محمد إسبر، مكتبة العبيكان، 2014
- 19 غنار سكربك ونلز غيلجي. تاريخ الفكر الغربي، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، 2012
- 20 الحسن بن مطهر الحلبي. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 2007
- 21 جوستاين غاردر. عالم صوفي، ترجمة: حياة الحويك عطية، دار المنى، 2017
- 22 محمد تقي مصباح يزدي. دروس في العقيدة الإسلامية، دار الرسول الأكرم، بيروت، 2008
- 23 بيتر كولنز. علم الكونيات – مقدمة قصيرة جدّاً، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، الطبعة الثانية 2022
- 24 نيل ديجراس تايسون ودولاند جولدسميث. البدايات، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2013
- 25 مارتن ريس. ستة أرقام فقط، ترجمة: جنات جمال – مهند التومي – د. مؤمن الحسن – د. موسى ادريس، دار رواسخ، الامارات، 2018
- 26 منير الخباز. الدين بين معطيات العلم وإثارات الإلحاد، شبكة المنير بتصرف يسير
- 27 فرانسيس كولينز. لغة الإله، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- 28 محمد باقر الصدر. المرسل والرسول والرسالة، دار التعارف للمطبوعات
- 29 فيكتور ستينجر. الله الفرضية الفاشلة، ترجمة: د. كمال طاهر، 2012
- 30 د. عمرو شريف. خرافة الإلحاد، مكتبة الشروق الدولية، مصر

- 31 -ديفيد هيوم. محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة: د. فيصل عباس، دار
الحدائق، 1980
- 32 -مرتضى فرج، أفي الله شك؟، دار الانتشار العربي، لبنان
- 33 -مايكل ج. بيرى. الدين في السياسة - جوانب دستورية وأخلاقية -،
ترجمة: عربي ميقياري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2014
- 34 -الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع،
1999
- 35 -تشارلز داروين. أصل الأنواع، ترجمة: اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي،
بريطانيا، 2017
- 36 -محمد كامل سند. تاريخ الحياة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،
القاهرة
- 37 -«بريان تشارلزورث» و«ديورا تشارلزورث». التطور.. مقدمة قصيرة
جداً، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022
- 38 -كريفستوف فولف. الإناسة.. التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو
يعرف المرزوقي، الدار المتوسطي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2012
- 39 -خزعل الماجدي. تاريخ الخليقة، دار الرافدين، الطبعة الثالثة، لبنان، 2022
- 40 -نيك لين. ارتقاء الحياة.. الاختراعات العشرة العظيمة للتطور، ترجمة:
محمد عبد الرحمن اسماعيل، مؤسسة هنداوي، مصر، 2015
- 41 -مايكل بيهي. صندوق داروين الأسود، ترجمة: د. مؤمن الحسن وآخرون،
دار الكاتب للنشر والتوزيع، مصر
- 42 -ستيفن لو. الإنسانيّة، ترجمة: ضياء وراد، مؤسسة هنداوي، بريطانيا
- 43 -ريتشارد دوكنز. صانع الساعات الأعمى، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم
فهمي، دار العين للنشر، مصر
- 44 -محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، منشورات
اسماعيليان، ايران
- 45 -مرتضى مطهري. الدوافع نحو المادية، دار التعارف، بيروت، 1980
- 46 -اسماعيل مظهر. مقدمة ترجمته لكتاب أصل الأنواع، مؤسسة هنداوي،
بريطانيا، 2017

- 47 عرفان يلزمان. التطور نظرية علمية أم أيديولوجيا؟!، تحرير: اسماعيل كابر، دار النيل، القاهرة، 2013
- 48 كريس إمبي. نهاية كل شيء – من الكون إلى الإنسان – ترجمة: إيناس المغربي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012
- 49 عباس محمود العقاد. عقائد المفكرين، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017
- 50 مصطفى ملكيان. البراهين على إثبات وجود الله، ترجمة: حسن علي مطر، دار الروافد، لبنان
- 51 ويل ديوارنت. قصة الحضارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت
- 52 سي أس لويس. المسيحية المجردة، ترجمة: سعيد باز، أوفير للطباعة والنشر، الأردن، 2006
- 53 علي عزت بيغوفيتش. الاسلام بين الشرق والغرب، المترجم: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، 1414
- 54 كيلي كلارك. الله والدماغ، ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافيّة، بيروت، 2022
- 55 مجموعة باحثين: اللاهوت المعاصر.. دراسات نقديّة، العتبة العباسيّة المقدسة، كربلاء، 2020

المصادر الانجليزية: 56 - Erwin Schrodinger, Nature and the Greeks and Science and humanism, 1996 by Cambridge University

57 - Friedrich Nietzsche, Untimely Meditations, 1977 by Cambridge University.

58 - Ravi Zacharias, The Real Face of Atheism, 2004 by Baker Books.

59 - Neil Manson, God and Design, Taylor & Francis e - Library, 2005.

60 - Penguin, Harmodsworth ,Creation Revisited ,1994.

61 - Making Waves, American Physical Society, 1995.

62 - William Paley. Natural Theology: or Evidences of the Existence and Attributes of Deity, Faulder, London 1809.

63 - Alan Guth, Inflationary universe, physical review, 1981.

64 - Colorado Spring. The creator and the cosmos, 1995

65 - A. McGrath, the foundation of dialogue in science and religion, Blackwell, Oxford, 1998

66 - Gould. Ever Since Darwin, 11 - Norton, New York, 1977

67 - Godwin. How the Leopard Changed its Spots, Princeton University 68 - Evolutionary Biology, Harvard, MIT Press, Vienna Series in Theoretical Biology, 2003.

- 69 - George Douglas Campbell. Eighth Duke of Argyll. «What is Science?» in Good Words 1885.
- 70 - Eben Alexander, Proof of Heaven: A Neurosurgeon's Journey into the Afterlife, New York, Simon and Schuster, 2012
- 71 - Sam Harris, «This Must Be Heaven,» The Blog, October 12, 2012
- 72 - Victor Stenger, «Not Dea Experiences (NDEs),» Huffington Post, October 11, 2012
- <http://www.nytimes.com/2003/04/12/opinion/a-brief-history-of-the-multiverse.html?pagewanted=all> -73 -المواقع الالكترونية:
- 74- [https://nasainarabic.net/main/articles/view/universe - bubble-lets-check](https://nasainarabic.net/main/articles/view/universe-bubble-lets-check)
- 75- <https://www.independent.co.uk/news/people/profiles/martin-rees-we-shouldn-t-attach-any-weight-to-what-hawking-says-about-god-2090421.html?amp>
- 76- <https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-63119577>
- 77- <https://ncse.ngo/edwards-v-aguillard>
- 78- <https://evolutionnews.org/2019/02/skepticism-about-darwinian-evolution-grows-as-1000-scientists-share-their-doubts/>
- 79- https://youtube.com/playlist?list=PLgtqMzuQ7viodeYrAiZa1NUba_e0zNLpl&si=ySLZvvo2_zbOiCVL
- 80- [https://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist - evangelist/](https://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/)
- 81- [https://www.bethinking.org/atheism/the-john-lennox -richard-dawkins-debate](https://www.bethinking.org/atheism/the-john-lennox-richard-dawkins-debate)
- 82- <https://www.science.org/doi/10.1126/science.112.2915.567.a>
- 83- https://youtu.be/yKogjVun2A?si=LZMGy6ZWHNU01_D6
- 84- <http://www.skeptic.ca/Persinger.htm>

- (1) التعريف بالبروفيسور لگنهاوزن: فيلسوف أمريكي، نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة رايس الأمريكية، وعمل أستاذاً في جامعة جنوب تكساس لمدة من الزمن، يعمل الآن كأستاذ وباحث في الفلسفة في معهد الإمام الخميني للتعليم والأبحاث في مدينة قم، وقد كانت تربطه علاقة علمية وصداقة شخصية خاصة مع العلامة الراحل الشيخ مصباح اليزدي.
- (2) هي قناة تلفزيونية عربية مَفْتُوحَة مُتَخَصَّصَة في أفلام ومسلسلات الرسوم المتحركة والأنمي والفقرات الخاصة بالأطفال والمراهقين، وتُعتبر قناة سبيس تون ثالث قناة مُتَخَصَّصَة في الرسوم المتحركة في الوطن العربي. وتعرض القناة أهم المسلسلات الكرتونية العالمية.
- (3) التعريف بهوكينج: من أبرز علماء الفيزياء النظرية وعلم الكون على مستوى العالم في القرن الواحد والعشرين، درس في جامعة أكسفورد وحصل منها على درجة الشرف الأولى في الفيزياء. عانى من مرض عضال وهو مرض العصبون الحركي، الذي سبب له شللاً في معظم أجزاء جسده، إلا أن ذلك لم يؤخره عن السطوع العلمي، شغل كرسي نيوتن للأستاذية في جامعة كامبريدج
- (4) ستيفن هوكينج. التصميم العظيم، ص 13 – 19، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، 2015
- (5) التعريف بكانط: هو فيلسوف ألماني شهير، عاش في القرن الثامن عشر، كان أحد أهم الذين تركوا أثراً في الثقافة الأوروبية الحديثة، حيث يعتبره البعض آخر فلاسفة عصر التنوير
- (6) التعريف بالفن بلاتنتجا: أحد أبرز الفلاسفة التحليليين اليوم، درس بجامعة هارفارد ونال الدكتوراة من جامعة ييل، زميل الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم
- (7) الفن بلاتنتجا. العلم والدين والطبيعية – أين يقع التعارض؟، ص 313، ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019
- (8) التعريف بشرودنجر: عالم فيزيائي نمساوي معروف بإسهاماته في ميكانيكا الكم الحديثة حاز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1933م
- (9) Erwin Schrodinger, Nature and the Greeks and Science and humanism, p: 98, 1996 by Cambridge University.
- (10) التعريف بنيتشه: فيلسوف ألماني عدمي له كتابات أدبية وآراء غريبة. انتهى به الأمر إلى الانهيار والاضطراب العقلي في آخر حياته، لكن آراءه تركت أصداء عديدة لدى قروءه بعد رحيله
- (11) Friedrich Nietzsche, Untimely Meditations, p: 154, 1997 by

Cambridge University

(12) التعريف بدوكنز: هو عالم [سلوك حيوان](#) وأحياء تطورية ومؤلف بريطاني، عُرف بإلحاده ورفضه للأديان، يعد الواجهة الأولى والرمز الأوضح للإلحاد المعاصر

(13) ريتشارد دوكنز. الجينة الأنائيّة، ص 9، ترجمة: مركز الباطنين للترجمة، دار الساقى، بيروت، 2009

(14) Ravi Zacharias, The Real Face of Atheism, p: 20, 2004 by Baker Books.

الترجمة عن د. سامي عامري، البراهين ج1، ص 38، مركز تكوين، الخبر، 2018.

(15) التعريف بدوجلاس آكس: أستاذ البيولوجيا الجزيئية بجامعة بيولا. حاصل على شهادة الدكتوراه من المعهد العلمي بكاليفورنيا، عمل في مركز البحث العلمي بجامعة كامبريدج للعلوم البيولوجية والطبيّة

(16) دوجلاس آكس. غير قابل للتكذيب – كيف تؤكد البيولوجيا صدق حدسنا أن الحياة مصممة –، ص16، ترجمة: محمد القاضي وزيد الهبري، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، 1440 هـ

(17) التعريف بـ باسكال: عالم فيزياء وفيلسوف فرنسي، اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، ويقال أنه هو مخترع الآلة الحاسبة

(18) بليز باسكال. خواطر باسكال، ص 84، ترجمة: ادوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، لبنان، 1972

(19) التعريف بـ لورانس كراوس: هو [فيزيائي نظري](#) و[عالم فلك أمريكي كندي](#) يعمل كأستاذ جامعي في كلية استكشاف الأرض والفضاء في ولاية [أريزونا](#)، ويعد من أهم منظري «الإلحاد الجديد»

(20) لورانس كراوس. كون من لا شيء، ص 246، ترجمة: غادة الحلواني، منشورات الرمل، مصر، 2015

(21) ريتشارد دوكنز. حوارات سيدني، ص 27، ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش، دار سطور، بغداد، 2017

(22) ريتشارد دوكنز. حوارات سيدني، ص 107، ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش، دار سطور، بغداد، 2017، وقد صرّح بذلك ضمن لقاءه مع قناة الجزيرة الذي أداره الإعلامي مهدي حسن في عام 2013

(23) التعريف بـ عادل مصطفى: طبيب نفسي ومترجم مصري معاصر، حائز على جائزة أندريه لالاند في الفلسفة

(24) عادل مصطفى. المغالطات المنطقية – فصول في المنطق غير الصوري –، ص146، دار رؤية، مصر، 2019

- (25) الكليني. الكافي، ج 1 ص 75، دار الكتب الاسلامية، ايران، 1388
- (26) الكليني. الكافي، ج 1 ص 78، دار الكتب الاسلامية، ايران، 1388
- (27) وهنا نضع ملاحظة أساسية، وهي أنه ليس ذكرنا للآيات القرآنية هنا من باب الاحتجاج بها على الملحد، لأنه لا يعتقد بمصدرها الإلهي ولا يعتقد أنها حقٌّ مطلق، كما نحن، وهو من الأخطاء الذي يقع فيها البعض عند خوض الحوار مع الآخر، فنحن لا نكلف ونحمل على الآخر أن يلتزم بما لا يعتقد به في مدار مائدة الحجج، بل ذكرنا للآيات القرآنية من قبيل عرض التصور القرآني للمنظومة الفكرية القائمة على الإيمان بوجود الله، وكذلك الحال في النقل عن الأئمة المعصومين – ع – في هذا الحد.
- (28) ريتشارد دوكنز. وهم الإله، ص 107 – 108، ترجمة: بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية
- (29) جون لوك. رسالة في التسامح، ص 57، ترجمة: منى أبو سنه، المشروع القومي للترجمة، مصر، 1997
- (30) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 20، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
- (31) التعريف بـ آينشتاين: هو أشهر علماء الفيزياء، وقد أبدع نظريات كبيرة ومؤثرة كـنظريتي النسبية العامة والخاصة، مما ساهم في تصحيح رؤية الفيزياء السابقة على عصره والتي كانت تقوم على أفكار ونظريات نيوتن
- (32) التعريف بـ بول ديفيز: عالم فيزياء بريطاني أستاذ جامعي في جامعة ولاية أريزونا ومدير مركز بيوند BEYOND مركز المفاهيم الأساسية في العلم، يشارك في معهد الدراسات الحكومية في جامعة شابمان في كاليفورنيا، كما تولى مناصب جامعية أخرى في جامعة كمبردج وجامعة لندن وجامعة نيوكاسل وغيرها، وبهمنا القول أنه قد حصل على جائزة تمبلتون عام 1995. وهي جائزة مخصصة للأبحاث العلمية المرتبطة بالتفسيرات الروحية والدينية
- (33) بول ديفيز. الجائزة الكونية الكبرى، 84 – 86، ترجمة: د. سعد الدين خرفان، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011
- (34) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 52، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
- (35) ستيفن هوكينج. التصميم العظيم، ص 162، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، 2015
- (36) التعريف بجون ليونكس: عالم بريطاني في الرياضيات وفلسفة العلوم، يعمل كبرفسور في الرياضيات في جامعة أكسفورد. وهو عضو في زمالة في الرياضيات وفلسفة العلوم في كلية تمبلتون الخضراء، جامعة أكسفورد.

- (37) جون لينوكس. العلم ووجود الله – هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟! – ص 117، ترجمة: مارينا كتكوت، خدمة credologos، م2007.
- (38) التعريف بأتوني فلو: – وهو فيلسوف بريطاني، بروفيسور في جامعة أبردين، اشتهر بكتابه في فلسفة الأديان. كان فلو طوال حياته ملحدًا بل من رؤوس الإلحاد، وألف العديد من الكتب التي تدحض فكرة الإله، غير أنه وفي آخر حياته ألف كتابا نسخ كل كتبه السابقة وقد تجاوزت ثلاثين كتابًا تدور حول فكرة الإلحاد، بعنوان: هنالك إله – ومن النافع جدًا للشباب أن يقرأوا هذا الكتاب القيم
- (39) أتوني فلو. هناك إله – كيف غير أشهر ملحد رأيه –، ص 187، ترجمة: د. صلاح الفضلي، مراجعة وتدقيق: الشيخ د. مرتضى الفرج، العتبة العباسية المقدسة، 1438 هـ
- (40) ستيفن هوكينج. التصميم العظيم، ص 196، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، 2015
- (41) التعريف بـ مارتن ريس: عالم بريطاني في الكونيات والفيزياء الفلكية. حصل على ماجستير من كلية ترينيتي في كامبريدج 2004 – 2012 وعمل كرئيس للجمعية الملكية العلمية بلندن بين عامي 2005 و2010
- (42) بيل برايسون. موجز تاريخ كل شيء تقريبًا، ص 34، ترجمة: أسامة محمد إسبر، مكتبة العبيكان، 2014
- (43) جون لينوكس. أقوى البراهين، ص 25، جمعه: المهندس المصري: أحمد حسن، مركز دلائل، الخبر، 1437 هـ
- (44) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 52، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
- (45) التعريف بكارل بوبر: فيلسوف نمساوي – إنكليزي متخصص في فلسفة العلوم. عمل بروفيسورا في تدريس المنطق جامعة لندن. يعتبر كارل بوبر أحد أهم وأغزر المؤلفين في فلسفة العلم في القرن العشرين كما كتب بشكل موسع عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية.
- (46) غنار سكربك ونلز غيلجي. تاريخ الفكر الغربي، 883، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، 2012
- (47) صحيفة نيو يورك تايمز، مقال لـ بول دفينز <http://www.nytimes.com/2003/04/12/opinion/a-brief-history-of-the-multiverse.html?pagewanted=all>، الترجمة من موقع «السييل» العربي
- (48) انظر تقرير وكالة ناسا بالعربي: <https://nasainarabic.net/main/articles/view/universe-bubble-lets-check>

(49) أنتوني فلو. هناك إله – كيف غير أشهر ملحد رأيه –، ص 189، ترجمة: د. صلاح الفضلي، مراجعة وتدقيق: الشيخ د. مرتضى الفرج، العتبة العباسية المقدسة، 1438 هـ

(50) التعريف بـ نيل مانسون: أستاذ مؤلف ومحاضر في فلسفة الدين، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة سيراكيوز، عام 1998، وهو باحث مشارك في ما بعد الدكتوراه في مركز فلسفة الدين في جامعة نوتردام، 2001 – 2002

(51) Neil Manson, God and Design, p 21, Taylor & Francis e - Library, 2005

(52) ألفن بلانتجا. العلم والدين والطبيعية – أين يقع التعارض؟، ص 226، ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019

(53) لا بد من الإشارة إلى أنّ «الأكوان المتوازية» كفرضية تبدو متناقضة مع قاعدة «ويليام أوكامي» العلمية المعروفة، والتي تنص أنه متى ما كُتِبَ أمام فرضيتين علميتين، تستطيع إحدهما أن تفسر جميع الظواهر محل البحث، والأخرى لا تستطيع أن تفسر جميع الظواهر محل البحث إلا بإضافة متغيرات وفرضيات جديدة، فإنّ الكفة المعرفية لا بد أن تكون في صف الفرضية الأقدر على التفسير، أيّ الأولى. لأنها حققت المطلوب بكامله وهو تفسير جميع الظواهر محل البحث، ونحن هنا أمام فرضيتان: 1 – الله هو مبدأ العالم 2 – لا يوجد خالق للعالم وإنما هناك بلايين الأكوان نشأت في ظروف غامضة ومتغيرات مجهولة ويتضح أنّ الفرضية الأولى – خلافاً للثانية – هي الأقدر على التفسير إذ أنها لا تعوزها الحاجة إلى فرضيات مضافة أو متغيرات أخرى، فيتعين إثبات وجود الله، وقد بحثت مسألة «مبدأ أوكام» في كتابي «الإنسان في ثنائية العلم والدين» في باب: رافد العلم، بشيء من التفصيل هناك لمن أحب المراجعة

(54) التعريف بالعلامة الحلي: أحد أشهر فقهاء ومُتكلّمي الشيعة الإمامية في القرن الثامن للهجرة. أول من لقب بـ آية الله، ويلقب بـ «العلامة» في أعراف البحوث العلمية الشيعية، وهو تلميذ الفيلسوف والفلكي الشهير بتطويره لعلم الكلام الشيعي: الخواجه نصير الدين الطوسي

(55) الحسن بن مطهر الحلي. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، ص 63 مؤسسة الأعلمي، بيروت، 2007

(56) مصطلح «السالبة بانتفاء الموضوع» هو تعبير يستند إلى علم المنطق في وصف القضايا الموهومة، مثلاً: لو سُئِلت: هل تفضل أن تلعب مع «أخيك» لعبة البيسبول أم لعبة الغولف؟! في حين لم يكن لك أخ أصلاً.. فلا يمكن إجابة هذا السؤال بحده إجابة صحيحة. لأنّه يتوقف على مقدمة مفقودة وهي وجود الأخ. وتطبيق هذه الفكرة على المورد هو أنّ كلامنا مع

الملحد في أصل وجود الإله. لا في سماته الشخصية، التي لا يمكننا الحديث عنها إلا بعد الفراغ من مقدمة إثبات وجوده.

(57) التعريف بـ صوفي أمدسن: شخصية وهمية، بطلة رواية عالم صوفي، وهي فتاة في الرابعة عشر من عمرها، تعيش في [النرويج](#) عام 1990، وظفها الروائي جوستاين غاردر في سرد تاريخ الفلسفة وأهم أسئلتها وحُقبها

(58) التعريف بـ جوستاين غاردر: كاتب نرويجي يعمل أستاذاً في الفلسفة وتاريخ الفكر وهو يمارس الأدب والتعليم معاً. اشتهر بكتابه للأطفال بمنظور القصة داخل القصة

(59) جوستاين غاردر. عالم صوفي، 14، ترجمة: حياة الحويك عطية، دار المنى، 2017

(60) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 202، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر

(61) ريتشارد دوكنز. وهم الإله، ص 122، ترجمة: بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية

(62) التعريف بالشيخ محمد تقي مصباح يزدي: فيلسوف إسلامي إيراني شهير، من أبرز تلامذة العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي والعارف الشيخ محمد تقي بهجت والإمام الخميني. وكان زميلاً لمفكرين المعيين كهشتي ومطهري، وله حضور واسع في المديات الفكرية والثقافية

(63) محمد تقي مصباح يزدي. دروس في العقيدة الإسلامية، ج 1 ص 77، دار الرسول الأكرم، بيروت، 2008

(64) <https://www.independent.co.uk/news/people/profiles/martin-rees-we-shouldn-t-attach-any-weight-to-what-hawking-says-about-god-2090421.html?amp>

(65) التعريف بـ بيتر آتكينز: أستاذ الكيمياء في كلية لينكولن في جامعة أوكسفورد، وهو كاتب غزير الانتاج لكتب الكيمياء الدراسية الشهيرة وعلى وجه الخصوص الكيمياء الفيزيائية

(66) Harmodsworth «1994, p. 143 Creation Revisited, Penguin» الترجمة من كتاب: العلم ووجود الله، جون لينوكس، 111 ترجمة: ماريانا كتكوت، الناشر خدمة Credologos

(67) التعريف بـ بيتر كولنز: أستاذ الفيزياء الفلكية بجامعة نوتنجهام. شارك في تأليف كتابين دراسيين عن علم الفلك وما يربو على مائة مقال فني متخصص حول مختلف جوانب نظرية الانفجار العظيم، وألف أيضاً كتابي: «أينشتاين ومولد العلم الكبير» و«هوكينج وعقل الإله»، وقد رشحته جامعة أوكسفورد لكتابة مقدمة قصيرة جداً في علم الكونيات ضمن سلسلة

«مقدمة قصيرة جدًا»؛ التي تصدرها في مختلف حقول المعرفة
(68) بيتر كولنز. علم الكونيات – مقدمة قصيرة جدًا، 40 – 42، ترجمة: محمد

فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، الطبعة الثانية 2022
(69) التعريف بـ تشارلز تاونز: وعالم فيزيائي أمريكي، حاز جائزة نوبل للفيزياء عام 1964م. ويشتهر بأعماله في نظرية وتطبيقات المايزر، حيث حاز من ورائها براءة الاختراع الأساسية. وله بحوث رائدة في مجال الإلكترونيات الكمومية

(70) Making Waves, American Physical Society, 1995 «نقلًا عن:
العلم ووجود الله، جون لينوكس، 122، ترجمة: ماريانا كتكوت، الناشر خدمة Credologos

(71) الكليني. الكافي، ج 1 ص 73، دار الكتب الإسلامية، إيران، 1388
(72) التعريف بويليام بيلي: فيلسوف بريطاني مسيحي، درس في جامعة كامبريدج ثم عمل فيها أستاذًا وكانت مؤلفاته منهجًا للمختصين في فلسفة الأخلاق

(73) Wiiliam Paley. Natural Theology: or Evidences of the Existence and Attributes of Deity, p: 1 - 2, Faulder, London 1809

(74) التعريف بالموناليزا: هي لوحةً فنيةٌ نصفيةٌ تعود للقرن السادس عشر لسيدةٍ يُعتقدُ بأنها ليزا جوكوندو، بريشة الفنان، والمهندس، والمهندس المعماري، والنحات الإيطالي ليوناردو دافينشي، في عام 2014، زار 9.3 مليون شخص متحف اللوفر، اعتبر مدير المتحف السابق «هنري لوبريت» أن 80% منهم أرادوا فقط مشاهدة الموناليزا

(75) التعريف بشاهنامه: الشاهنامه ملحمة فارسية ضخمة تقع في نحو ستين ألف بيت، من تصنيف أبو قاسم الفردوسي، وتُعتبر أعظم أثر أدبي فارسي في جميع العصور

(76) التعريف بـ نيل ديجراس تايسون: عالم أمريكي مختص بالفيزياء الفلكية، كاتب ومقدم للعديد من البرامج التلفزيونية العلمية. يعمل حاليًا باحثًا في قسم الفيزياء الفلكية في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وهو خريج جامعتي هارفارد وكولومبيا

(77) نيل ديجراس تايسون ودولاند جولدسميث. البدايات، 33، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2013

(78) التعريف بـ أندريه ساخاروف: عالم فيزياء نووية روسي، وكان له نشاط حقوقي بارز فيما يتعلق باستعمال الأسلحة النووية ونادى بنزاعها، حصل هذا النشاط على جائزة نوبل للسلام 1975، عمل أستاذًا في المعهد الفيزيائي التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية

- (79) بيتر كولنز. علم الكونيات – مقدمة قصيرة جدًّا، 74 – 75، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، الطبعة الثانية 2022
- (80) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 20، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
- (81) التعريف بـ آلان غوث **فيزيائي وفلكي** أمريكي، اشتهر بأعماله في نظريات **الجسيمات الأولية**، وبكونه الواضع لنظرية **التضخم الكوني**، ويعمل أستاذًا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا
- (82) Alan Guth, «Inflationary universe», physical review, p: 384, 1981. الترجمة لـ «جون لينوكس. العلم ووجود الله – هل قتل العلم الإيمان بوجود الله؟! – ص 123، ترجمة: مارينا كتكوت، خدمة credologos، م 2007.
- (83) التعريف بـ هيو روس: كندي أمريكي وعالم **فيزياء فلكية**، **مدافع لاهوتي**، ومدافع عن خلقية الأرض القديمة. روس حاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من **جامعة تورونتو**
- (84) Colorado Spring. The creator and the cosmos, p: 117, 1995.
- (85) مارتن ريس. ستة أرقام فقط، ص 215، ترجمة: جنات جمال – مهند التومي – د. مؤمن الحسن – د. موسى ادريس، دار رواسخ، الامارات، 2018
- (86) منير الخباز. الدين بين معطيات العلم وإثارات الإلحاد، ص 50، شبكة المنير بتصرف يسير
- (87) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 145، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (88) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 136، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (89) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 18 – 20، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (90) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 22 – 23، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (91) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 24، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (92) فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 10، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015
- (93) الجواب الديني على هذه المسألة هو أنّ الله تعالى جعل الإنسان خليفته في الأرض وأميناً على بناء الحضارة

(94) وأنا أكتب هذه الكلمات تذكرت الآية القرآنية: {وَأَلْفَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}

(95) لمزيد من المفاجآت، انظر: فرانسيس كولينز. لغة الإله، ص 147 وما بعدها، ترجمة: د. صلاح الفضلي، الكويت، 2015

(96) التعريف بـ إدنجتون: عالم فلك وفيزياء ورياضيات بريطاني شهير له إسهامات عظيمة في الفيزياء الفلكية منذ أوائل القرن العشرين، ويعمل بروفيسورا في جامعة كامبريدج

(97) ألفن بلانتيجا. العلم والدين والطبيعية – أين يقع التعارض؟، ص 213، ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019

(98) تعريف بالسيد الشهيد محمد باقر الصدر: فيلسوف عراقي كبير وفقه شيعي تلقى تعليمه حصراً في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وله آثار علمية جلية منها: فلسفتنا، اقتصادنا، الأسس المنطقية للاستقراء، لم يختلف الشرق والغرب في وصفه بالعبقرية والنبوغ، وقد استشهد دفاعاً عن المواقف النبيلة على يد حزب البعث عام 1979 وعمره آنذاك 46 عاماً (99) محمد باقر الصدر. المرسل والرسول والرسالة، ص 25، دار التعارف للمطبوعات

(100) التعريف بـ جون ليسلي: هو عالم رياضيات وفيزيائي اسكتلندي عرف بأبحاثه حول الحرارة. حصل لسلي على وسام رمفورد من الجمعية الملكية بلندن سنة 1804، وعمل بروفيسورا في جامعة إدنبرة

(101) A. McGrath, the foundation of dialogue in science and religion, Blackwell, p: 114, Oxford, 1998

(102) لفهم منهج السيد الشهيد الصدر في برهان النظم، والقائم على أساس «حساب الاحتمال» يمكن مراجعة شرح الشيخ د. مرتضى فرج، أفي الله شك، ص 178، دار الانتشار العربي، لبنان، وقد تجبّت التفصيل في شرح هذه الطريقة لأنّ الكلام فيها يطول، واكتفيت بما يحقق الغرض منها في نقاش المبدأ الإنساني

(103) ستيفن هوكينج. تاريخ موجز للزمن، ص 59، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر

(104) التعريف بـ فيكتور ستينجر: حاصل على شهادة الدكتوراة في فلسفة الفيزياء من جامعة كاليفورنيا، عمل بروفيسورا في جامعة هاواي وجامعة كولورادو، وهو زميل في عدة مراكز أبحاث ودراسات علمية، وهو ملحد وصديق لـ لورانس كراوس.

(105) فيكتور ستينجر. الله الفرضية الفاشلة، ص 118، ترجمة: د. كمال طاهر، 2012

(106) د. عمرو شريف. خرافة الإلحاد، ص 111، مكتبة الشروق الدولية، مصر

(107) ديفيد هيوم. محاورات في الدين الطبيعي، ص 103، ترجمة: د. فيصل عباس، دار الحداثة، 1980

(108) تعرضنا لمثال ويليام بيلي الشهير في ص

(109) كنت قد أشرت لهذه الطريقة – طريقة السيد الشهيد الصدر – في علاج الإشكال السابق، وهي نافعة هنا كذلك. فراجع

(110) التعريف بـ مرتضى فرج: محقق وباحث ديني كويتي، حصل على الدكتوراة من جامعة سندرلاند، وكانت أطروحته العلمية في مقارنة منطق الاحتمال عند السيد محمد باقر الصدر وكارل بوبر، وهو رجل دين شيعي له كتابات ومحاضرات منشورة

(111) د. مرتضى فرج، أفي الله شك؟، ص 192، دار الانتشار العربي، لبنان

(112) التعريف بـ ستيفن جولد: عالم **أحياء** في مجال التطور والحفريات، وكان أحد أكثر مؤلفي العلوم الشعبية تأثيرًا في تلك الفترة، وعمل كأستاذ في **جامعة هارفارد**، وفي **المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في واشنطن**

(113) Gould. Ever Since Darwin, p 267, Norton, New York, 1977

(114) لمتابعة سيرة داروين انظر: ويليام بينوم. مختصر تاريخ العلم، ترجمة: أحمد الزبيدي، ص 237 – 249، دار الكتب العلمية، 2018

(115) أركنساس: هي ولاية تقع في **المنطقة الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة**

(116) مايكل ج. بيرى. الدين في السياسة – جوانب دستورية وأخلاقية – ترجمة: عربي ميقي، ص 47، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2014

(117) الموسوعة العربية العالمية. ج 25 ص 353، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999

(118) تشارلز داروين. أصل الأنواع، ص 119، ترجمة: اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2017

(119) قد يُقال بأنّ هذه الفكرة معارضة تماما للنص الديني: (ولقد كرّمنا بني آدم)، حيث لا تنسجم كرامته مع اتحاد أصله مع بقية الحيوانات، لكننا لا نوافق على تقرير هذه المعارضة، لأنّ الظاهر أنّ كرامة الإنسان مقررة لجوانب معنوية متسامية عن عالم المادة، وبدلنا على ذلك حقيقة ضعف الإنسان وهزيمته على يد أقل الأشياء حجمًا ووجودًا في عالم الطبيعة [الفيروسات – الحشرات السامة]، بل يُمكن أن يُستوحى من بعض أجواء النص الديني مهانة الإنسان على المستوى المادي، وأنه لا يختلف من هذه الحيثية عن الحيوانات الأخرى: (ألم نخلقكم من ماء مهين)

(120) التعريف بـ محمد كامل سند: كاتب مصري مهتمّ بأبحاث التطور

البيولوجي

(121) محمد كامل سند. تاريخ الحياة، ص 141، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة

(122) تشارلز داروين. أصل الأنواع، ص 416، ترجمة: اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2017

(123) تشارلز داروين. أصل الأنواع، ص 661، ترجمة: اسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2017

(124) التعريف بـ بريان تشارلزوورث: الرئيس السابق لجمعية دراسات التطور، يعمل أستاذاً في معهد بيولوجيا الخلية والحيوان بجامعة إدنبرة، وله

عديد من الأبحاث في دراسة الوراثة التطورية وتطور الجينوم البشري (125) التعريف بـ ديورا تشارلزوورث: الرئيسة السابقة للجمعية الأوروبية

للبيولوجيا التطورية، وهي زميلة مهنية بمعهد بيولوجيا الخلية والحيوان بجامعة إدنبرة، ولها عديد من الأبحاث في دراسة تطور النبات

(126) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 24 – 25، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(127) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 37 – 38، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي،

2022

(128) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 107، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(129) انظر: <https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-63119577>

(130) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 30، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(131) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 34، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(132) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 85، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(133) «بريان تشارلزوورث» و«ديورا تشارلزوورث». التطور.. مقدمة قصيرة جداً، ص 79، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(134) التعريف بـ كريستوف فولف: أستاذ ألماني في الأنثروبولوجيا في جامعة أدنبرة

(135) التعريف بـ إرنست ماير: هو عالم بيولوجيا ألماني أمريكي، يعتبر ماير أحد أشهر علماء البيولوجيا في القرن 20، اختص في علم التصنيف وعلم

الطيور وتاريخ العلوم، عمل بروفيسورا وباحثاً في جامعة هارفارد

(136) كريفتوف فولف. الإناسة.. التاريخ والثقافة والفلسفة، ص 33 – 34،
ترجمة: أبو يعرف المرزوقي، الدار المتوسطي للنشر والتوزيع، أبو ظبي،
2012

(137) التعريف بـ خزعل الماجدي: باحث من [العراق](#)، مُتخصص في علم
وتاريخ الأديان والحضارات القديمة، اشتهر بتقديمه أطروحات في تخطئة
روايات الكتب المقدسة للتاريخ من خلال علم الآثار والآركيولوجيا، فيما
تناول باحثون آخرون أطروحته بالرد والمناقشة

(138) خزعل الماجدي. تاريخ الخليقة، ص 358، دار الرافدين، الطبعة الثالثة،
لبنان، 2020

(139) خزعل الماجدي. تاريخ الخليقة، ص 226، دار الرافدين، الطبعة الثالثة،
لبنان، 2020

(140) التعريف بـ نيك لين: عالم كيميائي وكاتب بريطاني. وهو أستاذ في
الكيمياء الحيوية التطورية في جامعة كولينج لندن

(141) نيك لين. ارتقاء الحياة.. الاختراعات العشرة العظيمة للتطور، ص 122
– 123، ترجمة: محمد عبد الرحمن اسماعيل، مؤسسة هنداوي، مصر،
2015

(142) معنى القاعدة المنطقية أنّ أيّ قاعدة إذا ادّعي لها الشمولية، فيكفي
لدحضها ونقضها فرد واحد يخالفها، فلو قلت: كلُّ عربيٍّ كريمٌ، فلا نحتاج
لإبطال هذه القاعدة إلى إثبات عدم وجود أيّ كريم من العرب، ويكفي
لإبطال قاعدتها أن نأتي بعربيٍّ واحد لا يتصف بالكرم، وفي المثال إذا ادّعي
أنّ جميع المخلوقات تنشأ بأسلوب التطور، فالانفجار الكامبري دليل أثري
على نشوء ملايين المخلوقات بصورة دفعية غير خاضعة لتراكمات التطور،
فهذا المثال يبطل قاعدة نظرية التطور من الجذر، وفقاً لمن يتبنّى هذه
الرؤية

(143) تشارلز داروين. أصل الأنواع، ص 538 – 539، ترجمة: اسماعيل
مظهر، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2017

(144) التعريف بـ مايكل بيهي: عالم كيمياء حيوية أمريكي، مؤلف، ومناصر
للتصميم الذكي. يشغل حالياً منصب أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة ليهاي
في بنسلفانيا

(145) مايكل بيهي. صندوق داروين الأسود، ص 192، ترجمة: د. مؤمن
الحسن وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، مصر

(146) مايكل بيهي. صندوق داروين الأسود، ص 36، ترجمة: د. مؤمن الحسن
وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، مصر

(147) لمزيد من التفصيل: مايكل بيهي. صندوق داروين الأسود، ص 36 – 40

ترجمة: د. مؤمن الحسن وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، مصر
(148) التعريف بـ كينيث ميلر: هو وعالم أحياء خلوي وبيولوجيا جزئية يعمل
حاليا أستاذا لعلم الأحياء في جامعة براون

(149) ستيفن لو. الإنسانيّة، ص 41، ترجمة: ضياء وراد، مؤسسة هنداوي،
بريطانيا

(150) ريتشارد دوكنز. صانع الساعات الأعمى، ص 71، ترجمة: د. مصطفى
ابراهيم فهمي، دار العين للنشر، مصر

(151) مايكل بيهي. صندوق داروين الأسود، ص 193 ترجمة: د. مؤمن الحسن
وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، مصر

(152) ألفن بلانتيجا. العلم والدين والطبيعيّة – أين يقع التعارض؟، ص 38،
ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019

(153) التعريف بـ برايان جودوين: عالم كندي مختص في الأحياء النظرية
والرياضيات

(154) Godwin. How the Leopard Changed its Spots, p: ix, Princeton University

(155) مايكل ج. بيرى. الدين في السياسة – جوانب دستورية وأخلاقية –
ترجمة: عربي ميّقاري، ص 47، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت،
2014

(156) انظر باللغة الإنجليزية مجموعة مقالات قانونيّة أكاديميّة تحليليّة لقرار
المحكمة الفيدرالية العليا عبر موقع الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم:
<https://ncse.ngo/edwards - v - aguillard>

(157) التعريف بـ ستيفن ماير: عالم أمريكي وأستاذ جامعي ومؤلف. وهو من
دعاة اعتبار التصميم الذكي. ساعد على إنشاء مركز العلم والثقافة التابع
لمعهد دسكفري

(158) يمكن مراجعة فيلم (مطرودون.. غير مسموح بالذكاء) وهو متوفر عبر
اليوتيوب، والفيلم عبارة عن وثائقي من إخراج ناثن فرانكويسكي وتقديم
المعلق الأمريكي ستاين، أنتج في عام 2008، ومدته 97 دقيقة، ويحتوي
على حوارات مع عديد من العلماء الذين مارسوا المؤسسات الأكاديميّة
والجامعات المشهورة تجاههم أنواعًا من القمع لأنهم يحملون آراء ناقدة
لنظرية التطور

(159) انظر المقال عبر موقع المعهد بالانجليزية:
[https://evolutionnews.org/2019/02/skepticism-about-darwinian-
/evolution-grows-as-1000-scientists-share-their-doubts](https://evolutionnews.org/2019/02/skepticism-about-darwinian-evolution-grows-as-1000-scientists-share-their-doubts)

(160) محمد حسين الطباطبائي. الميزان ج 16 ص 256، منشورات
اسماعيليان، إيران

(161) مرتضى مطهري. الدوافع نحو المادية، ص71، دار التعارف، بيروت، 1980

(162) التعريف ب إسماعيل مظهر: مفكر مصري تقدمي.. يُعتبر أحد رواد النهضة العلمية المعاصرة في والعالم العربي، وأحد رواد الفكر والعلم . درس ثم تحول إلى . قام بترجمة كتاب «» ونشره عام 1918

(163) اسماعيل مظهر. مقدمة ترجمته لكتاب أصل الأنواع، ص62، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2017

(164) التعريف ب عرفان يلزمان: بروفييسور تركي لعلم الأحياء في جامعة دوكونز إيلول

(165) عرفان يلزمان. التطور نظرية علمية أم أيديولوجيا؟! ص41، تحرير: اسماعيل كابار، دار النيل، القاهرة، 2013

(166) التعريف ب هرمان مولر: عالم-وراثة أمريكي، حصل على جائزة نوبل في الطب لعام 1946

(167) Evolutionary Biology, Harvard, MIT Press, Vienna Series in Theoretical Biology, 2003, p. 51

(168) يذكرني هذا بالآية الكريمة: (كيف تكفرون بالله.. وكنتم أمواتاً فأحياكم؟! فكأن الآية تجعل شفرة الحياة وسرّها هو المحور العصبي الذي لا يمكن تفسيره إلا بالإيمان بوجود الخالق

(169) «بريان تشارلز وورث» و«ديورا تشارلز وورث». التطور.. مقدمة قصيرة جدًا، ص 127 – 128، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2022

(170) التعريف ب كريس إمبي: عالم فلك بريطاني، عمل في إدارة جامعة أريزونا، ومعهد كاليفورنيا للتقنية

(171) كريس إمبي. نهاية كل شيء (من الكون إلى الإنسان) ص24 – 25، ترجمة: إيناس المغربي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012

(172) يذكرني هذا بالآية الكريمة: (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ولكن أكثر الناس لا يعلمون!) فالتطوري الذي يريد أن ينكر وجود الله بافتراضاته يتعافل – متكبرًا أو متجاهلاً – عن أنّ حياة الإنسان ليست شيئاً يُذكر إزاءً لكل ما تحويه الطبيعة من نظام معقد، فحتى لو تملص من إسناد الحياة إلى خالقها فإنه يبقى بلا حيلة أمام تفسير المشهد الكوني ككل

(173) التعريف بدوغلاس كامبل: هو اقتصادي وسياسي بريطاني، كان عضواً في الحزب الليبرالي في القرن أواسط التاسع عشر

(174) George Douglas Campbell. Eighth Duke of Argyll. "What is Science?" in Good Words 1885; quoted in Ratzsch. "Perceiving Design." P124

(175) عباس محمود العقاد. عقائد المفكرين ص48، مؤسسة هنداوي،

المملكة المتحدة، 2017

(176) التعريف بجراهام: عالم مشهور ومهندس ومخترع ومبتكر اسكتلندي المولد، ينسب إليه تسجيل أول براءة اختراع هاتف وإنشاء شركة الهاتف والتلغراف الأمريكية

(177) عباس محمود العقاد. عقائد المفكرين ص 48، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017

(178) جميع الأمثلة المتقدمة مستقاة من مجموعة محاضرات عامّة ألقاها البروفيسور مايكل ساندل في جامعة هارفارد تحت عنوان (مساق العدالة)، يمكن مراجعتها مترجمةً إلى العربيّة عبر الرابط اليوتيوب: https://youtube.com/playlist?list=PLgtqMzuQ7viodeYrAiZa1NUba_e0zNLpl&si=ySLZvyo2_zbOicVL

(179) التعريف بـ مصطفى ملكيان: [فيلسوف](#) ومفكر [ومترجم](#) ومحرر [إيراني](#) بارز، اشتهر قديم قراءات نقدية لمفاهيم عقائدية لدى المسلمين عموماً والشيعية خصوصاً.

(180) مصطفى ملكيان. البراهين على إثبات وجود الله، ص 427، ترجمة: حسن علي مطر، دار الروافد، لبنان

(181) العرفاء في الوسط الشيعي يسمّون ذلك بالمكاشفات، والبحث هنا طويل ليس هذا محله

(182) التعريف بـ فولتير: [فيلسوف فرنسي](#) عاش خلال [عصر التنوير](#). عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الطريفة ودفاعه عن [الحريات المدنية](#) خاصة [حرية العقيدة](#) والمساواة وكرامة الإنسان، ومن المهم الإشارة إلى أنّ فولتير كان ملحدًا، لكنّه كان يقفّ بالدور الاستثنائي للإيمان في تأسيس الالتزام الأخلاقي للبشر، ولذلك يتمنى أن تكون زوجته مؤمنة لا ملحدة وهكذا خادمه

(183) ويل ديوارنت. قصة الحضارة، ج 38، ص 214، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت

(184) التعريف بـ سي أس لويس: وباحث [إيرلندي](#). تنوعت اهتماماته بين أدب [القرون الوسطى](#) و**علم العقائد في المسيحية والنقد الأدبي**

(185) سي أس لويس. المسيحية المجرّدة، ص 28، ترجمة: سعيد باز، أوفير للطباعة والنشر، الأردن، 2006

(186) سي أس لويس. المسيحية المجرّدة، ص 42، ترجمة: سعيد باز، أوفير للطباعة والنشر، الأردن، 2006

(187) «<https://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/>»

(188) <https://www.bethinking.org/atheism/the-john-lennox-richard-dawkins-debate>

(189) ريتشارد دوكنز. وهم الإله، ص 227، ترجمة: بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية

(190) التعريف بـ علي عزت بيغوفيتش: هو أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك بعد انتهاء حرب البوسنة مع يوغوسلافيا، كان مفكراً إسلامياً مرموقاً كتب عدّة كتب رائدة ككتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»، درس القانون في جامعة سراييفو وعمل في الاستشارات لمدة 25 عاماً، ثمّ تفرغ للكتابة والبحث.

(191) علي عزت بيغوفيتش. الإسلام بين الشرق والغرب. ص 209، المترجم: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، 1414

(192) <https://www.science.org/doi/10.1126/science.112.2915.567.a>

(193) التعريف بـ كيلي كلارك: فيلسوف أمريكي مشهور بعمله في فلسفة الدين والعلم والدين والعلم المعرفي للدين أو علم الإدراك الديني، وهو حالياً زميل أبحاث أول في معهد كوفمان للمشارك بين الأديان، وأستاذ في جامعة غراند فالي ستيت في غراند رابيدز ميشيغان. وقد درس الدكتوراه بإشراف الفيلسوف المسيحي ألفين بلانتجا الذي سبق تعريفه والإشارة إلى بعض آرائه

(194) كيلي كلارك. الله والدماغ ص 59، ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2022

(195) ينبغي الإشارة في هذا المورد، إلى أنّ القرآن الكريم تحدث بشكل صريح وواضح أنّ الميت يحصل له نوع خاص وواسع من انكشاف الرؤية: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(196) https://youtu.be/yKogijVun2A?si=LZMGy6ZWHNU01_D6

(197) كيلي كلارك. الله والدماغ ص 50، ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2022

(198) Eben Alexander, Proof of Heaven: A Neurosurgeon's Journey into the Afterlife, p 45 - 71, New York, Simon and Schuster, 2012

(199) Sam Harris, "This Must Be Heaven," The Blog, October 12, 2012

(200) Victor Stenger, "Not Dea Experiences (NDEs)," Huffington Post, October 11, 2012

(201) التعريف بـ مايكل بريسنجر: عالم أعصاب أمريكي، عمل في دراسة أعصاب المخ في جامعة لورانس في كندا

(202) Quoted in Robert Hercz, "The God Helmet," <http://www.skeptic.ca/Persinger.htm>

(203) هذا يذكرني بقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) فكم كان دوكنز متشوقاً لإثبات إحداه من خلال أن هذا الاضطراب هو الذي يحدث التجارب الروحية الوهمية، وإذا به يمرّ بهذا الاضطراب من دون أن يحصل له أي تجربة

(204) هذا يذكرني بقول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) فهم مستعدون لاختلاق ألف قصة وحكاية «مزخرفة» إما بطابع العلم أو التقدم أو عناوين أخرى، كل ذلك لأجل ثني الإنسان عن الإذعان لنداء الفطرة البسيط الذي يشدّه نحو الوحي دون أي تكلف أو تعقيد

(205) كيلي كلارك. الله والدماغ ص 50، ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2022

(206) التعريف بـ ستيورات جادج: هو أستاذ علم وظائف الأعصاب في جامعة أوكسفورد، وتتركز اهتماماته الحالية على تحليل مخرجات ومنتجات علم الأعصاب.

(207) مقالة: لاشيء سوى حزمة من الخلايا العصبية، ضمن كتاب: اللاهوت المعاصر.. دراسات نقدية ص 129، العتبة العباسية المقدسة، كربلاء، 2020

(208) كيلي كلارك. الله والدماغ ص 66 – 67، ترجمة: محمد سيد سلامة، ابن النديم للترجمة، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2022

(209) ألفن بلانتنجا. العلم والدين والطبيعانية – أين يقع التعارض؟، ص 155 – 156، ترجمة: يوسف العتيبي، مركز دلائل، الرياض، 2019

(210) وفي هذا الصدد وردت كمية كبيرة من النصوص الدينية القرآنية والروائية، لكنني لا أريد هنا الاستطراد في هذا الجوّ، حتى لا ينقلب البحث عن هدفه الرئيسي، فبدل من أن يكون البحث عن دلائل وجود الله وعقلانيته يتحوّل إلى تحليل مفردة «الفطرة» في اللسانيات الشرعية، وإثما ذكرت الآيات الكريمة في هذا المورد لا على سبيل الاحتجاج بها كآية قرآنية، إذ أن ذلك لا يصح كما مرّ في الأبحاث المتقدمة، وإثما هو عرض لنفس الاحتجاج القرآني كروية ومنهج، فنحن لا نحتج بالقرآن، وإثما نعرض احتجاج القرآن